



# العلمية الإلهية



القديس يوحنا ذهبي الفم

# العناية الإلهية

للقديس يوحنا ذهبي الفم

تمت الترجمة عن كتاب

Jean Chrysostome

Sur La

Providence De Dieu

Sources Chrétiennes

N.79

الطبعة: الأولى ٢٠٠٩  
أسم الكتاب: العناية الإلهية  
إعداد: نشأت مرجان  
مراجعة: أ. إبراهيم صموئيل  
الناشر: دار النشر الأسقفية ٣٠ شبرا - القاهرة - مصر.

(جميع حقوق الطبع محفوظة لدار النشر الأسقفية، فلا يجوز الاقتباس أو إعادة النشر والطبع للكتاب، بدون إذن الناشر وللناشر وحده حق إعادة الطبع)

# المحتويات

٨	مقدمة عن الكتاب
١٠	مقدمة القديس يوحنا ذهبي الفم
١٢	الفصل الاول
	ينبغي ذكر سبب من أين تولد العثرة
١٤	الفصل الثاني
	محاولة الاستفسار والاجتهاد في فحص حكمة الله التي لا تُسر، هو أمر خطير وممتلئ طياشة.
١٨	الفصل الثالث
	اللاهوت غير مُدرَك، ليس فقط لنا، بل وللقوات السماوية أيضاً
٢٢	الفصل الرابع
	موسى النبي قطع الفضول الخطير بكلمة (واحدة) في بداية الكتاب المقدس.
٢٦	الفصل الخامس
	ينبغي أن نصدق أن الله ساهر على كل الأشياء، ولمن يشكوا في ذلك فإن برهان الخليقة هو أعظم دليل.
٢٨	الفصل السادس

الحب الإلهي يفوق بلا نهاية كل حب  
(آخر).

٣٤ الفصل السابع

برهان عناية الله من الخليقة

٤٢ الفصل الثامن

دليل عناية الله بنا أنه أعطانا الناموس الطبيعي والناموس المكتوب، وأخيراً صار أساس كل الخيرات في نوال النعمة بمجئ الابن الوحيد.

٤٦ الفصل التاسع

لا ينبغي السعي لفحص الأحداث بل يلزم الانتظار إلى النهاية

٤٨ الفصل العاشر

أبرار العهد القديم انتظروا نهاية الأحداث

٥٨ الفصل الحادى عشر

تحقيق الوعود لا يتم في الحال وانظروا كيف أن القديسين لم يعثروا رغم الأحداث كانت مناقضة للوعود.

٦٠ الفصل الثاني عشر

لماذا سمح الله بوجود الأشرار والشياطين في العالم؟

٦٢ الفصل الثالث عشر

لا شئ يسبب ضرراً وعثرة لمن هم يقظون.

٦٦ الفصل الرابع عشر

هل عثرت النفوس بسبب الاضطهادات في العصر الرسولي؟

٧٠ الفصل الخامس عشر

الجهلاء عثروا حتى بأعظم الخيرات، أقصد الصليب الذي به تم خلاص العالم.

٧٢ الفصل السادس عشر

لا أحد يؤذى من لم يؤذى نفسه

٧٤ الفصل السابع عشر

الصليب دليل على عظم اهتمام وصلاح وحب الله.

٧٨ الفصل الثامن عشر

هذه الأحداث كانت مكسباً غير قليل للكنيسة.

٨٠ الفصل التاسع عشر

شهداء كثيرون عاشوا وماتوا في هذا الرجاء.

٨٤. الفصل العشرون

حتى في عصر الرسل حدثت أشياء متعبة جداً

٨٨ الفصل الحادى والعشرون

توجد تجارب كثيرة في كل من العهد القديم والعهد الجديد.

٩٠

### الفصل الثاني والعشرون

التجارب ليست فقط لن تعثر من كانوا مهياًين حسناً، بل هي أيضاً مفيدة لهم، حتى لو كانوا من اليونانيين (أي من الوثنيين وغير المؤمنين).

٩٤

### الفصل الثالث والعشرون

ما حدث هو علامة عظيمة على مجد الكنيسة، وكثيرون انتفعوا به.

٩٦

### الفصل الرابع والعشرون

الذين اقترفوا المظالم قد عوقبوا.

## مقدمة عن الكتاب

ترتبط تأملات القديس يوحنا ذهبي الفم عن موضوع العناية الإلهية ارتباطاً وثيقاً برسائله إلى الشماسة أوليمبيا، ففي الرسالة السابعة عشرة وهي آخر ما لدينا من رسائل موجهة منه إليها، يوضح القديس يوحنا ذهبي الفم فكرته بهذه الكلمات [ لقد أرسلت إليك ما كتبه حديثاً عن موضوع «لا أحد يستطيع أن يؤذي من لم يؤذ نفسه» والنص الذي أرسله الآن إليك يسير على نفس النوال من الجهاد، فطالعه بدون توقف، وإن كنت في صحة جيدة اقرأه بصوت عالٍ، لأن هذا سيكون دواءً شافياً إن أردت. ]

من المحتمل أن ذهبي الفم كتب هذه الرسالة في مطلع عام ٤٠٧م في القوقاز، أي بعد ثلاث سنوات من نفيه من القسطنطينية وخروجه في صحة حرس محملين بأوامر (مشددة) من الإمبراطورة أفدوكسيا بإساءة معاملته وإتهامك صحته في الرحلة حتى إلى الموت. ورغم المعاملة السيئة التي لاقاها من الجنود قساة القلب ومن أسقف أحد البلاد الذي - بناءً على توصية من الحكام - اصطحب معه رهبان بلدته وأخرجه منها بمجرد وصوله إليها تحت جنح الظلام. ورغم مرضه وارتفاع درجة حرارة جسده المنهوك، ورغم سوء الأحوال الجوية التي لم يعتد عليها، ورغم اعتلال صحته جداً، إلا أنه لم يكف عن تقديم الشكر لله، بل كان دائماً يعزي أحياءه وتلاميذه وفي مقدمتهم الشماسة أوليمبيا التي كانت من أوفى بناته الروحيات.

وبسبب خوفها الشديد عليه وحزنها لفراقه ولعلمها باعتلال صحته نتيجة لسوء المعاملة... أرسل لها هذه التأملات الممتعة عن عناية الله التي تحيط بنا وترعانا وتدبر كل ما يختص بحياتنا، إذ لا شيء يحدث لنا دون أن يمر على عناية الله الذي يزن هذه الأحداث بموازنة الفائقة الإدراك بالنسبة لنا. وإن كلمات بولس الرسول: «كل الأشياء تعمل معاً للخير للذين يحبون الله» هي النور الذي ينير طريقنا وسط ظلمات طريق الحياة. الرب قادر أن يجعل هذا الكتاب سبب بركة وعزاء لكل من يطالعه ببركة الصوم الأربعيني المقدس وبركة القديس يوحنا ذهبي الفم. آمين.

**ملاحظة:** تم الاستعانة بكتيب العناية الإلهية للقديس يوحنا ذهبي الفم الصادر عن كنيسة مار جرجس بأسبورتنج والذي أورد تلخيص ومقتطفات فقط من الأربعة عشر فصلاً الأولى في هذا الكتاب. .... الصوم الأربعيني لعام ١٩٩٤م.



## مقدمة الكتاب

### للقديس يوحنا ذهبي الفم

من هو بين طغمة القديسين؛ يوحنا أبينا رئيس أساقفة القسطنطينية... إلى من عثروا من المظالم والمطاردات وسوء المعاملة من الناس ومن كهنة كثيرين، نكتب عن العناية الإلهية الفائقة الإدراك.

١ - عندما يريد الأطباء معالجة المصابين بالحمى أو من يعانون أي مرض آخر، فإنهم يسعون أولاً إلى رؤية المرضى أنفسهم، لأنهم لو ظلوا بعيدين عنهم فلن يكون بمقدورهم أن يقدموا ما في وسعهم أن يقدموه، إذ أن فن الطب يستلزم معاينة الأمراض على الطبيعة.

٢ - وعلى العكس فنحن -- الذين نعاني من مرض أو مرضين، بل كل من يعانون من العثرة على مدى العالم كله، لا نحتاج لشئ من هذا، إذ أنه ليس مطلوباً منا الذهاب لأحد ممن هم مصابون بهذا المرض أو التعرف على مدى انتشار المرض ولا حتى مطلوباً أن نسعى لرؤية من هم في صحة سيئة. نحن لن نستعمل أدوات (جراحية) ولن نكلف من هم مرضى أن يشتروا ما يستلزم العناية بهم (ومعالجتهم).

٣ - حتى لو كان هؤلاء المرضى غير معروفين لنا، ولو كانوا يقيمون في أقصى الأرض وفي وسط البراري، وقابعين في قاع البؤس، وفقراء بالدرجة التي ينقصهم القوت الضروري، فلا شيء من هذا يمنعنا من العناية بهم. نحن الذين في موضع منفرد (أي معزول وبعيد)، وبدون أدوات (جراحية)، وبدون أدوية أو طعام أو شراب أو مال، أو بدون (الحاجة إلى) سفر طويل... سنطرد هذا المرض.

٤ - كيف، وبأي وسيلة؟ بإعداد ترياق (دواء) الكلمة الذي هو ناجح لكل المرضى، ومن باب أولى لكل من ذكرناهم، لأن الكلمة (الإلهية) ستعزدي أفضل من الخبز، وتقيم أفضل من أي علاج، وتكوي بقوة أكثر من النار دون أن تثير أي ألم.

١ - بقصد المرض العثرة. التعثر في إدراك عناية الله ومحبه لنا عندما نحيط بنا نار التجارب ونكتوي بلبهيا فظن خطأ أن الله قد نسينا أو تخلى عنا.

وتكبيخ الأمواج المسمومة للأفكار المنحرفة<sup>٢</sup>، إن (الكلمة) أكثر حدة من السيف، فهي تبتز الأجزاء المصابة دون ألم، ويعملها هذا لا تكلف أية نفقة ولا تزيد الفقير فقراً. إذ قد أعددنا هذا الترياق، فنحن نرسبه للجميع. وأنا أعلم أن الكل سيستفيد من هذا العلاج، بشرط التمسك بكلماتنا بانتباه وإرادة حسنة.

---

٢- إن المرطقة ليست هي ثمرة للعقل بل هي ثمرة لسوء استخدام الإنسان للمنطق (والتفكير السليم).

## الفصل الأول

### ينبغي ذكر سبب من أين تتولد العثرة

١ - لأنه فيما يختص بالجسد، فإن معرفة سبب مرضه هو في المعتاد عون ليس بقليل للمريض، بل هو أمر فعال جداً ويساهم في شفائه، لأنه ليس فقط سيفلت من قبضة المرض الذي أصابه بعد معرفته للسبب، بل أيضاً لن يتعرض للمرض مرة أخرى، لأنه علم السبب الذي لأجله وقع فريسة للمرض في المرة السابقة، وسيحفظ منه فيما بعد. فلنشرح نحن أيضاً أولاً لمن عانوا مثل هذه الآلام، من أين أتاهم مرض العثرة.

٢ - في الواقع أنكم لو تعرفوا على علته واهتموا بالوقاية منه سيفلتون من هذا المرض، ليس فقط الآن بل دائماً، ومن أمراض أخرى كثيرة. هكذا طبيعة هذا العلاج أنه يشفي في الحاضر ويحصن ضد كل الأمراض في المستقبل.

٣ - لأن العثرة لا يسقط تحتها الضعفاء لعله أو علتين أو ثلاث، بل توجد علل كثيرة تجعل الضعفاء يسقطون في العثرة. وكلمتنا تهدف إلى تحرير من كانوا ضحايا لهذه البلايا بشرط أنهم على الأقل - كما سبق أن ذكرت منذ قليل - يريدون السماع ويضعوا في اعتبارهم النصائح المعطاة لهم.

٤ - إن هذا الدواء قد أعدده، ليس فقط بالرجوع إلى الكتاب المقدس، بل أيضاً من الأحداث التي تتم أثناء الحياة الحاضرة ولا تتوقف عن الحدوث، بحيث أن من هم غير مرتبطين بالكتاب تكون هذه الأحداث وسيلة متاحة لهم ليقوموا بخطأهم إذا أرادوا ذلك.

٥ - لأنني لن أكف عن تكرار القول: إنه من المستحيل فرض هذا العلاج بالإجبار وبالقوة عندما يرفضه المريض ولا يقبل التعاليم الإلهية، إذ أن الشفاء الآتي من هذه التعاليم هو أعظم جداً من الدروس التي نستوعبها من الأحداث التي تتم في حياتنا.

٦- لأنه ينبغي التيقن أن الإعلان الآتي من الله هو جدير بالتصديق أكثر من الأحداث المرئية. أما لماذا تنتظرهم - من لا يريدون أن يقوموا أنفسهم - عقوبة صارمة جداً، فهذا لأنه مع كونهم أخذوا الكتب المقدسة لم يجنوا منها أية منفعة، بينما منفعتهم كامنة فيها. فلكني لا يكونوا ضحايا لهذه العقوبة فلنبداً الآن في تقويمهم بأن نشرح لهم أولاً سبب هذا المرض.

## الفصل الثاني

### محاولة الاستفسار والاجتهاد في فحص

حكمة الله التي لا تُسبر، هو أمر خطير وممتلي طياشة.

١- فما هو سبب هذا الخطب (الشر) العظيم؟ إنه الفكر المتطفل والفضولي، إنها الرغبة في معرفة سبب كل الأحداث (التي تحل بنا)، ومحاولة الدخول في نزاع مع عناية الله غير المدركة وغير الموصوفة؛ تلك العناية الفائقة لكل فحص واستقصاء. ومع هذا لا يحجل الإنسان من هذا الموقف الفضولي المملوء تموراً.

٢- ترى من فاق بولس في حكمته؟ أخبرني ألم يكن إناءً مختاراً؟ ألم يأخذ نعمة الروح الفائقة غير المنطوق بها؟ ألم يتكلم المسيح فيه؟ ألم يكشف الله له عن أمور لا يُنطق بها؟ ألم يسمع ما لا يحق لإنسان أن ينطق به؟ ألم يُحتطف إلى الفردوس وارتفع إلى السماء الثالثة؟

٣- ألم يجوب البر والبحر يجذب البرابرة (أي الوثنيين) ليصيروا مسيحيين؟ ألم يمتلك قدرات كثيرة ومتنوعة للروح؟ ألم يؤسس النظام (والترتيب الحسن) لدى شعوب ومدن كثيرة؟ ألم يضع الله بين يديه المسكونة كلها وسلمها له؟

ومع هذا كله فإن هذا الرجل بعظمته وحكمته وقوته وامتلأته بالروح - إذ خصه الله بهذه الامتيازات - عندما يتأمل في عناية الله، لا في كل جوانبها بل في جانب واحد منها، اسمع كيف يُصاب بالدهشة، كيف يأخذ الدوار، كيف يتراجع سريعاً خاضعاً أمام (سمو الله وتدبيره) الفائق الإدراك.

٤- فإنه لم يبحث عن عناية الله الملائكة ولا رؤساء الملائكة أو الشاروبيم والسيرافيم وكل الطغمات غير المنظورة، ولا عنايته بالشمس والقمر والسماء والأرض والبحر، ولا في سهره على الجنس البشري بأكمله واهتمامه بالحيوانات غير العاقلة والزرورع والعشب والأهوية والينابيع والأهوار، لا عن ولادتها ونموها وقوتها بموجب الطبيعة ولا عن أي شيء آخر شبيه.

٥- ولكنه تناول عناية الله الخاصة باليهود واليونانيين، وأفاض في بحث هذه النقطة وشرح كيف دعا الله الأمم ورفض اليهود ثم تكلم عن الشفقة التي أتم بها الخلاص لهؤلاء وأولئك.

٦- وحينما أدرك هذا، اكتشف الرسول أنه أمام محيط واسع، وإذا حاول فحص أعماق هذه العناية أصيب بالدوار أمام استحالة تفسير عملها، وأخذته الدهشة والذهول أمام عناية الله غير المحدودة أو الموصوفة أو المفحوصة أو المدركة، فراجع في مهابة متعجباً وهو يقول: «يَا لِعُمقِ غِنَى اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ!» (رو ١١: ٣٣).

٧- لقد أوضح بعد ذلك كيف تلامس مع أعماقها دون أن يفلح في استقصائها، فقال «ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء!» (رو ١١: ٣٣). إنه لم يقل أن أحكامه بعيدة عن الفحص فحسب بل وبعيدة أيضاً عن الاستقصاء. ليس فقط لا يقدر الإنسان على فهمها، بل ولا حتى أن يبدأ في استقصائها. يستحيل عليه أن يدرك غايتها أو حتى يكتشف كيف بدأ تخطيطها!

٨- وإذا قال «ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء» ألقى حديثه - وقد امتلأ تعجباً واندهالاً - بأشود شكر قال فيها: «لأن من عرف فكر الرب؟ أو من صار له مُشير؟ أو من سبق فأعطاه فيكافأ؟» لأن منه وبه وله كل الأشياء. له المجد إلى الأبد. آمين. (رو ١١: ٣٤-٣٦).

٩- هذا هو ما يريد أن يقوله بولس الرسول: إنه ينبوع كل الخيرات ومصدرها، ليس في حاجة إلى شريك أو مشير، لا يستعير من أحد قدرة المعرفة أو الذكاء المتوقد، فهو يعمل ويتم كل العجائب، وهو نفسه بدء كل الخيرات وأساسها وموجدها. هو نفسه الخالق، وهو نفسه الذي دعى غير الموجود إلى الوجود، يدبر ويحفظ كل شيء حسب إرادته!

١٠- «لأن منه وبه وله كل الأشياء.» (رو ١١: ٣٦).

هذه كلمات من يريد أن يظهر أن الله نفسه هو خالق كل الكائنات ومبدعها، مدبر حياتها وحافظها. وفي موضع آخر يتحدث بولس الرسول عن النعمة الموهوبة لنا فيقول:

«فشكراً لله على عطيته التي لا يعبر عنها» (٢ كو ٩: ١٥). وهو يظهر أن سلام الله المعطى لنا، ليس فقط فائق على كل نطق وكل وصف، بل ويتخطى كل عقل. لهذا السبب قال:

«وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم في المسيح يسوع.» (في ٤: ٧).

١١- فإن كان عمق غنى الله وحكمته وعلمه بلا حدود، وإن كانت أحكامه بعيدة عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء، وإن كانت مواهبه لا يُنطق بها، وسلامه يفوق عقلي وعقلك وعقل كل أحد، بل وعقلي بطرس وبولس، وفهم رؤساء الكهنة وكل الطغمت السماوية، أخبرني أي عذر لك في محاولتك الغيبة المملوءة جنوناً، لكي تتفهم ما لا يمكن إدراكه، محاسباً أعمال عناية الله؟!

١٢- إن كان بولس الذي أدرك الإلهيات بعمق وامتلاً رجاءً صادقاً غير منطوق به وغمرته كل هذه المواهب، بجده يتراجع. وإن كان قد ارتفع فوق حدود طاقته لعله يفهم فلم يقدر حتى أن يدرك مبادئ تدابير الله - لأن هذا محال - أفلا يُحسب ذلك الذي يريد السير في طريق مناقض لترتيب العناية الإلهية أشقى الجميع وأكثرهم جنوناً؟!

١٣- في الواقع إن بولس لم يكتف بهذا، بل عندما تعرض لمعرفة الأمور الإلهية في رسالته إلى أهل كورنتوس أظهر كيف - ولو أننا عرفنا الكثير - أن فإن معرفتنا محدودة وفي غاية الضالة. وعبر عن هذا علي وجه التقريب بهذه الكلمات: «فَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ يَعْرِفُ شَيْئاً فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئاً بَعْدَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ!» (١ كو ٨: ٢).

لقد أكد لنا أننا الآن نعرف بعض المعرفة، أما الجانب الأعظم منها فسنعرفه في الدهر الآتي: «لَأَنَّا نَعْلَمُ بَعْضَ الْعِلْمِ، وَنَتَنَبَّأُ بَعْضَ التَّنْبُؤِ. وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ الْكَامِلُ فَحِينَئِذٍ يُبْطَلُ مَا هُوَ بَعْضٌ» (١ كو ١٣: ٩-١٠).

١٤- ولم يكتف بولس بهذا، بل عندما أراد أن يوضح الفارق بين معرفتنا هنا ومعرفتنا في الحياة الأخرى لجأ إلى هذا التصريح: «لَمَّا كُنْتُ طِفْلاً كَطِفْلٍ كُنْتُ أَتَكَلَّمُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَقْطُنُ، وَكَطِفْلٍ كُنْتُ أَفْتَكِرُ. وَلَكِنْ لَمَّا صِرْتُ رَجُلًا أَبْطَلْتُ مَا لِلطِّفْلِ. ١٢ فَإِنَّا نَنْظُرُ الْآنَ فِي مِرَاةٍ فِي لُغْزٍ، لَكِنْ حِينَئِذٍ وَجْهًا لَوَجْهِهِ. الْآنَ أَعْرِفُ بَعْضَ الْمَعْرِفَةِ، لَكِنْ حِينَئِذٍ سَأَعْرِفُ كَمَا عُرِفْتُ» (١ كو ١٣: ١١-١٢).

١٥- هل لمست مدى الفارق بينهما؟ إنه كاختلاف معرفة الطفل الصغير عن معرفة الرجل الناضج، وكاختلاف الرؤية في مرآة عن التطلع وجهاً لوجه، إذ تشير المرآة إلى التعبير الغامض، أو بطريقة أخرى أقل وضوحاً من رؤية الأشياء على حقيقتها. فلماذا هذه الحماقة وهذا الجنون في أن نحابه عبثاً وباطلاً الأشياء الممنوعة؟ لماذا إذن لا نصدق قول بولس:

«بَلْ مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الَّذِي تُجَاوِبُ اللَّهَ؟ أَلَعَلَّ الْجِبِلَّةَ تَقُولُ لِحَبَابِلِهَا: لِمَاذَا صَنَعْتَنِي هَكَذَا؟» (رو ٩: ٢٠).

١٦- تأمل كيف يليق بنا الخضوع لإرادة الله في صمت! إنه بلا شك لا يقصد بقوله هذا أنه يود أن يفقدنا إرادتنا الحرة، حاشا! لكنه يؤكد أنه ينبغي على الباحث الالتزام بالصمت كالطين في يد الخزاف، لا يقاوم ولا يجادل. وقد ذكر الخزاف والطين ليذكرنا بطبيعتنا، فإيهما في درجة واحدة من حيث وجودهما (لأن الخزاف هو أيضاً مخلوق من الطين).

١٧- ومع هذا يخضع الطين للخزاف (رغم أنهما من نفس المادة)، فأية مغفرة يترجاهها الإنسان وهو يتجاسر مجادلاً إرادة الله جابله، مع أن الفارق بينه وبين الله الذي خلقه لا نهائي؟ أذكر أيها الإنسان مَنْ أَنْتَ - أَلَسْتَ طِيناً وَتَرَاباً وَرَمَاداً؟ أَلَسْتَ بِخَاراً (حرفياً دخان)؟ أَلَسْتَ عَشْباً؟ أَلَسْتَ زَهْرَةً عَشْبٍ؟

١٨- إن الأنبياء يذكرون دائماً كل هذه التشبيهات ويتسابقون في أن يصفوا قدام عيوننا وضاعة طبيعتنا. أما الله الذي تود أن تخضعه لفضولك الطائش فهو لا يخضع للموت أو التغيير. إنه سرمدى، لا بداية له ولا نهاية، غير مدرك، فائق لكل فهم وكل منطق، غير موصوف ولا منظور!

هذه الصفات لا نستطيع إدراكها أنا وأنت، أو حتى الرسل والأنبياء، بل ولا القوات السماوية - رغم طهارتها - وهي قوات غير منظورة وغير جسدية وتحيا على الدوام في السماء (في حضرته).



## الفصل الثالث

اللاهوت غير مُدرك، ليس فقط لنا،

بل وللقوات السماوية أيضاً

١ - عندما تسمع عن السيرافيم أنهم يطيطون حول العرش في سموه ورفعته، يغطون وجوههم بجناحين ويسترون أرجلهم باثنين ويصيحون بصوت مملوء رعدة، لا تظن أن لهم ريشاً وأرجلاً وأجنحة.

٢ - لأن هذه القوات غير مرئية، لكنه بفضل هذه التشبيهات تفكر في أن من هو جالس على العرش غير مُدرك ولا يمكن الدنو منه.

حقاً إن الله حتى بالنسبة لهذه الطغمت غير مُدرك ولا يقدر على الدنو منه. لهذا فهو يتنازل ليظهر بالطريقة التي وردت في الرؤيا، إذ أن الله لا يحده مكان ولا يجلس على عرش.

٣ - إنما جلوسه على العرش وإحاطته بالقوات السماوية، هي علامات من قبيل تنازله، وليس مجرد كونه جالساً. فهذه القوات لم تستطع رؤيته ولا حتى احتملت التطلع إلى بهاء نوره، فغطت أعينها بأجنتها، ولم يعد لها إلا أن تسبح وترنم بتسايح مملوءة مجدداً ورعدة مقدسة، وبتراتيل عجيبة تشهد لقداسة ذلك الجالس على العرش.

٤ - ألا تختبئ تحت الآكام يا من تمثل هذه الجسارة تريد أن تفحص عناية إله قوته لا توصف ولا يُعبّر عنها وغير مدركة للقوات السماوية؟

٥ - لأن كل ما يختص به (أي بالآب) معروف وبتحديد (قاطع) فقط للابن وللروح القدس، وليس لأي أحد سواهما. وقد سعى يوحنا الإنجيلي إلى إفهامنا الحقيقة الأولى، وبولس الرسول الثانية.

إن ابن الرعد الذي أحبه الرب جداً، والذي دل لقبه على سمو فضيلته والذي تمتع بالاتكاء على صدر الرب يقول: «الله لم يره أحد قط»، والرؤية هنا تعني المعرفة.

٦- «الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر» (يو: ١٨: ١). والمسيح نفسه شرح هذا سابقاً في موضع آخر عندما تحدث مع اليهود فقال:

«لَيْسَ أَنْ أَحَدًا رَأَى الْآبَ إِلَّا الَّذِي مَنِ اللَّهُ. هَذَا قَدْ رَأَى الْآبَ» (يو: ٦: ٤٦).

٧- وعندما أراد الإناء المختار (بولس) أن يتحدث عن مقاصد الله ويشير إلى الأسرار كما عرفها قال: «بَلْ تَتَكَلَّمُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ فِي سِرٍّ: الْحِكْمَةُ الْمَكْتُومَةُ الَّتِي سَبَقَ اللَّهُ فَعَيْنَهَا قَبْلَ الدُّهُورِ لِمَجْدَانَا،<sup>٨</sup> الَّتِي لَمْ يَعْلَمَهَا أَحَدٌ مِنْ عُظَمَاءِ هَذَا الدَّهْرِ - لِأَنَّ لَوْ عَرَفُوا لَمَا صَلَّبُوا رَبَّ الْمَجْدِ. بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: مَا لَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى بَالِ إِنْسَانٍ: مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ» (١ كو ٢: ٧-٩).

٨- إذاً كيف عرفنا حكمة الله يا بولس ومن كشفها لنا؟ ومن أوضح لنا الأمور التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخاطر على بال إنسان؟

٩- أخبرنا، من هو الذي وهب لنا هذه المعرفة العجيبة؟

«فَأَعْلَنَهُ اللَّهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ» (١ كو ٢: ١٠).

ولنلا يظن أحد أن الروح القدس يعرف فقط ما يكشفه الله لنا بواسطة ملائكته، وأنه لا يملك قوة المعرفة، أضاف بولس قوله: «فَأَعْلَنَهُ اللَّهُ لَنَا نَحْنُ بِرُوحِهِ. لِأَنَّ الرُّوحَ يَفْحِصُ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَعْمَاقِ اللَّهِ. لِأَنَّ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الْإِنْسَانِ إِلَّا رُوحَ الْإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هَكَذَا أَيْضاً أُمُورُ اللَّهِ لَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلَّا رُوحُ اللَّهِ» (١ كو ٢: ١٠-١١).

هذه الكلمات تعني أنه كما يعرف روح الإنسان ما يخصه بدقة، هكذا يعرف روح الله المعرفة الإلهية الكاملة بدقة لا يُعبّر عنها.

١٠- بقوله أن أمور الله لا يعرفها إلا روح الله، استبعد عن هذه المعرفة الدقيقة ليس فقط البشر، بل أيضاً كل المخلوقات السماوية. من أين هذه النصائح الحكيمة: «لا تطلب ما يعيبك نيله، ولا تبحث عما يتجاوز قدرتك، لكن ما أمرك الله به، فيه تتأمل ولا ترغب في استقصاء أعماله التي تتجاوز عقلك البشري» (بن سيراخ ٣: ٢٢ بحسب النص السبعيني).

١١- هذا القول يعني أنه يليق بك ألا تنسب معرفتك لذاتك، فلن تكفيك الطبيعة لمعرفة كل الأشياء، إنما أنت أخذت من فوق معرفة أكثر الأمور (التي عرفتها)، إذ هي تفوق إدراكك. لماذا تحاول استقصاء الأمور العميقة بقوتك الذاتية، مع أن أغلبها يفوق قوة تفكيرك التي وهبها الله لك؟

١٢- أعلل بولس كان يحاول الإشارة إليك حين قال: «لأنَّهُ مَنْ يُمَيِّزُكَ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ لَكَ لَمْ تَأْخُذْهُ؟ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَخَذْتَ، فَلِمَاذَا تَفْتَخِرُ كَأَنَّكَ لَمْ تَأْخُذْ؟» (١ كو٤: ٧).

إذا لتهرب من حب الجدال واقبل هذه النصيحة المملوءة حكمة: «لا تقل ما هذا؟ ولماذا حدث هذا؟ لأن كل الأشياء قد خلقت لاحتياجهما» (بن سيراخ ٣٩: ٢١).

---

٣- أي أن الله خلق كل شيء لاحتياج البشر في الانتفاع منه.

## الفصل الرابع

### موسى النبي قطع الفضول الخطير بكلمة

(واحدة) في بداية الكتاب المقدس.

١ - لهذا السبب عندما أكمل الله الخليقة كلها وزينها بالجمال، فمع أن هذا العمل المتناسق غير العادي يصيب من يراه بذهول عظيم، سبق الله فوجد أن كثير من الحمقى والمخبولين قد أُعدوا أنفسهم لمهاجمة الأشياء المخلوقة، لذلك دحض رأيهم الوجودي بكلمة واحدة فقال: «وَرَأَى اللهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فإِذَا هُوَ حَسَنٌ جَدًّا» (تك ١: ٣١).

٢ - وعن بين الأشياء التي رآها الله (حسنة) ليس فقط النور بل الظلمة (أيضاً)، وليس فقط الثمار بل الأشواك، وليس فقط الأشجار المزروعة بل الأشجار البرية، وليس فقط السهول المنبسطة بل الجبال والوديان والشقوق، وليس فقط البشر بل أيضاً الحيات السامة، وليس فقط الأسماك بل أيضاً الحيتان البحرية، وليس فقط الأمواج الهادئة، بل أيضاً البحر الذي يرفض كل ملاحظة فيه (عندما يهيج).

٣ - ليس فقط الشمس والقمر والنجوم، بل أيضاً الرعد والبرق والأعاصير، ليس فقط الهواء العليل بل أيضاً الزوابع. ليس فقط الحمام والطيور المغردة، بل أيضاً النسور والصقور والحيوانات الأخرى التي تفترس البشر، ليس فقط الغنم والبقر بل أيضاً الذئاب والفهود والأسود، ليس فقط الأيائل والأرانب البرية والغزلان، بل أيضاً العقارب والحيات. وبين الأعشاب ليس فقط النباتات التي تجلب الشفاء، بل أيضاً النباتات السامة، وكثير من هذه الخلائق صارت معثرة وجلبت هرطقات.

٤ - أما موسى فقد أعلن أنه لما جاءت الخليقة إلى الوجود وتزينت بكل زينتها مجدها الله (بمعنى أنه استحسناها). أقصد أنه مجد كل شيء منها على حدى، كما مجد الخليقة في مجموعها. بهذا لا يجسر أحد - مهما كان قوره - أن يفكر في فحص باقي الأشياء المرئية.

٥- لهذا السبب بعد أن قال: «ليكن نور» أضاف قوله: «ورأى الله أن النور حسن» (تك ١: ٤). بعد ذلك ولكي لا يطيل حديثه بتسمية كل الأشياء باسمها، عبّر بكلمة واحدة عن استحسانه لكل معاً فكرر القول: «ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً» (تك ١: ٣١).

٦- هذا لا يعني أن الله اكتشف جمالها بعد خلقها. كلا!

لأنه إن كان الفنان - وهو إنسان - يستطيع أن يدرك جمال عمل يديه قبل تنفيذه، فكم بالحري (الله) الحكمة الفائقة الذي بعث الحياة في الكل بإرادته وحده عرف روعة خليقته قبلما يخلقها.

٧- وما كان قد جاء بما إلى الوجود لو لم يكن قد سبق فعرّفها. فلماذا إذاً هذه الكلمات؟ للسبب الذي ذكرته (من قبل).

أيضاً بعد أن سمعت النبي (موسى) يقول لك، إن الله رأى كل شيء (حسن) ومدحه، فلا تسعى لوضع محك آخر ولا لبرهان آخر (يدل) على عظمتها ولا تقل ما هو الحسن الذي فيها؟

في الواقع إن إعلان حكم خالقها ورأيه بحسنها هو دليل مقنع أكثر من البرهان (على حسنها) المأخوذ من الأعمال ذاتها.

٨- لأجل هذا استخدم (موسى) طريقة كلام قاطعة ومبدئية بما فيه الكفاية. في الواقع لو أراد شخص أن يشتري أدوية دون أن يعرفها، فهو يطلب أولاً أن يراها الطبيب، وعندما يرى أن الطبيب قد استحسنتها بعد أن عاينها، فإنه لا يعود يطلب دليلاً آخر على فاعليتها، بل إذ علم أن الطبيب قد تعرّف عليها واستحسنتها فإنه يكتفي برأيه.

٩- كذلك موسى إذ أراد بتر كل فضول وقح من جانب الذين فيما بعد سيسخرون من الخلق، أعلن وقال إن الله رأى كل الأشياء (التي خلقها) واستحسنتها ووصفها بأنها حسنة وليس فقط «حسنة» بل وأيضاً «حسنة جداً».

٤- بُرئى عن الفنان الإيطالي الشهير مايكل أنجلو أنه عندما مر على قطعة رحام حام - كانت محل استقباح من الناس لمظرها المشوه - هتف عندما رآها لأول مرة لجمالها! فاندعش الناس وطفوه مجبولاً ولكن روعة تماثل الملاك الذي صغعه منها أزالته دهشة الناس!

١٠- إذاً لا تحاول البحث في أمور الخليفة باندفاع، فإن لديك شهادة عالية تعلن امتيازها (على كل شهادة أخرى). فإن لم تكتف بهذه الشهادة باحثاً في الخليفة بأفكار متضاربة وسط جو عاصف، فلن تتقدم في شيء، إنما تمى لنفسك فشلاً ذريعاً. لأنك ليس فقط لن تستطيع أن تجد تفاسير لكل الأشياء المخلوقة، بل وأيضاً ما قد تستحسنه من الخليفة الآن قد ترذله غداً، وذلك بسبب عمق تفكيرك.

١١- في الواقع إن فكر البشر ضعيف، وفي أغلب الأحيان ينحذب نحو اتجاهات متضاربة، وتعارض وجهات كثير من الناس تجاه الخليفة الآن، فاليونانيون بسبب شدة إعجابهم غير اللائق بما صيروها آلهة.

١٢- وعلى العكس فبين أتباع «ماني» وهراطقة آخرين، البعض يقول أنها ليست من صنع إله مُحب، والبعض الآخر بعد أن اقتطع منها جزءاً نسبوا للمادة أنها تولد من تلقاء نفسها، وقرروا أنها لا تستحق أن تكون من عمل إله خلاق. لذلك بادرت بالقول أنه عند استخدام المنطق والتفكير السقيم سندم أشياء كثيرة من بينها أشياء مؤكدة حسننها.

١٣- أي شيء في رأيك أكثر جمالاً من الشمس؟ ومع هذا فذلك الكوكب المضيء والجميل يؤدي عين المرضى، ويكلس الأرض بإرسال أشعته الحارقة، ويسبب الحمى للبعض، وكثيراً ما يبس المحصول ويجعله عديم النفع ويجعل الأشجار عقيمة (وذلك عندما تأتي الرياح اللافحة وقت التزهير فتسقط زهور شجر الزيتون والمواخ وغيرها من الأشجار)، ويجول جزءاً من الأرض إلى منطقة لا نستطيع الإقامة فيها.

١٤- قل لي، هل ندم الشمس بسبب هذا؟ لا، بل إذ ندع جانباً التعليلات والإزعاج الذي تولده، فإننا نلتصق إلى الصخرة التي هي الكلمة القائلة: «وَرَأَى اللَّهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا» (تك ١: ٣١).

إذاً فكل ما سبق أن أعدده (يا الله) هو حسن جداً ومفيد. وكما سبق أن أكدت، فإنه ينبغي الرجوع بدون توقف إلى هذه العبارة القائلة:

«وَرَأَى اللَّهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا» (تك ١: ٣١).

١٥- لكن هل الاهتمام في الاستكانة والضحك وحياة المذات هو شيء حسن؟ بالتأكيد لا. اسمع سليمان - وهو الذي اختر حياة الفسق - وهو يقول «الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة» (جا ٧: ٢)، وهل ينبغي أن نقول أن الليل رديء باستخدامنا

منطق معارضينا (يقصد المانين)؟

١٦- نعم، لكنه أيضاً مسكّن للبلايا، ومبعد للهموم، ومخفف للأمراض، وهو هدنة من الأخطار والمخاوف. إنه ينعش الجسد، ويعيد القوة للذهن ويُريح الجسد المتعب.

وهل المرض شر؟

نعم، لكن لأي سبب (غيره) تكلل لعازر؟

وهل الفقر شر أيضاً؟

إذا لأي سبب (آخر) صار أيوب مشهوراً؟ أليس لكون البلايا كانت تلاحق بعضها البعض بلا توقف؟

١٧- وأيضاً لأي سبب قد انتشرت أسماء الرسل؟ وما هو الطريق الذي يؤدي إلى الحياة؟ أليس هو الطريق الضيق والكرب؟ فلا تقل: لماذا هذا؟ وما الهدف من ذلك؟ لكن عندما يختص الأمر بتدابير الله وأعماله، ينبغي كما أن الخزف يلزم الصمت أمام الخزف، هكذا أنت أيضاً احفظ الصمت أمام الله الذي خلقك.

## الفصل الخامس

ينبغي أن نصدق أن الله ساهر على كل الأشياء،

ولمن يشكّوا في ذلك فإن برهان الخليفة هو أعظم دليل.

١- فماذا - ألا تريد أيها القارئ - أن تقول «إنني أعلم جيداً وأؤمن أن الله يسهر على كل شيء؟»

بالتأكيد أنت تريد وتتمنى وترغب في هذا جداً، لكن ليس بأن تجتهد في فحص عنايته وبسؤالك أسئلة باطلة. فإن كنت تشك في عناية الله أسأل الأرض والسماء والشمس والقمر. أسأل الكائنات غير العاقلة والزرورع والنباتات والأسمك التي لا تستطيع الكلام. أسأل الصحور والجبال والكتبان الرملية والتلال. أسأل الليل والنهار.

٢- في الواقع إن عناية الله أوضح من الشمس وأشعتها. في كل مكان، في البراري والمدن العامرة، على الأرض وفي البحار، في كل موضع تذهب إليه ستعاين شهادة واضحة وكافية، شهادة قديمة وجديدة عن هذه العناية. في كل موضع ترتفع الأصوات مدوية بوضوح أعلى من أصوات البشر العاقلين تعلن لكل من يريد أن يسمع عن صلاح الله الساهر!

٣- وإذ أراد النبي أن يسجل قوة هذه الأصوات قال: «في كل الأرض خرج منطقتهم، وإلى أقصى المسكونة كلماتهم. جعل للشمس مسكناً فيها» (مز ١٩: ٤). لغتنا نحن، لا يفهمها إلا أهل لساننا، أما الخليفة فتتطق بلغة تفهمها جميع الشعوب!



## الفصل السادس

### الحب الإلهي يفوق بلا نهاية كل حب (آخر).

١- لمن قد تمياً حسناً، فإن الاستعلان الوحيد عن الله - حتى قبل البرهان المأخوذ من أعماله - يكفي لإظهار ليس فقط عنايته بنا، بل أيضاً حبه الشديد لنا. لأنه لا يسهر علينا وحسب، بل هو أيضاً يحبنا لأجل ذواتنا حباً بلا حدود، حباً مقدساً ملتهباً، حباً شديداً حقيقياً لا ينفصم ولا ينطفئ.

٢- ولكي يكشف لنا الكتاب المقدس عن هذا الحب قارنه بحب البشر، موضعاً حب الله الساهر وعنايته بنا بأمثلة كثيرة من الحب والبصيرة (الفتنة) والاهتمام (لدي لبشر)، لا لتقف عند حدود الأمثلة وإنما ليدفعنا ذلك أن نتعدها أثناء تأملنا لها. إنه لم يقدمها كبراهين كافية على محبته، بل كأشياء معلومة جيداً لمن يفهمونها، وكأمثلة قادرة أكثر من أي شيء آخر على إظهار حبه لنا.

٣- هذا ما أريد أن أقوله. إن بعض الذين تضايقوا مرة وتأوهوا قائلين:

«قَدْ تَرَكَني الرَّبُّ وَسَيِّدِي نَسِينِي» (إش ٤٩: ١٤)، يجاوبهم النبي أشعيا قائلاً: «هَلْ تَنْسَى الْمَرْأَةَ رَضِيعَهَا فَلَا تَرْحَمُ ابْنَ بَطْنِهَا؟ حَتَّى هَؤُلَاءِ يَنْسِينِ، وَأَنَا لَا أَنْسَاكَ» (إش ٤٩: ١٥). وكأنه يقول: يستحيل على الأم أن تنسى رضيعها فبالأولى لا ينسى الرب جنس البشر.

٤- بعد ذلك، لكي أجعلك تفهم أن النبي استخدم هذه المقارنة، ليس بقصد تشبيه حب الله لنا بحب الأم لثمرتها، وإنما لأن حب الأم يفوق كل حب، غير أن حب الله حتماً أعظم منه، فإنه أضاف قوله: «حَتَّى هَؤُلَاءِ يَنْسِينِ، وَأَنَا لَا أَنْسَاكَ» (إش ٤٩: ١٥).

٥- ها أنت تنظر كيف أن محبة الله تفوق محبة الأم لأولادها. ولكي تفهم أن هذا الحب يفوق جداً حنان الأم وحب الأب لأولادها قال النبي داود: «كَمَا يَتَرَأَفُ الْأَبُ عَلَى الْبَنِينِ يَتَرَأَفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ» (مز ١٠٣: ١٣). وهو يستخدم مرة أخرى مقارنة الحب هذه، عالماً تماماً أن محبة الله تفوق كل حب آخر.

٦- يُظهر رب الأنبياء وسيد الجميع أن حبه يفوق جداً قدر الحب الأبوي، وإن كان يوجد فرق (عظيم) بين النور والظلمة والخير والشر، فعظيمة أيضاً المسافة (الهوة) التي تفصل بين صلاح الله وعنايته عن حنان الأب (البشري)، فاسمع ماذا يقول:

٧- «أَمْ أَيْ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ إِذَا سَأَلَهُ ابْنُهُ خَيْرًا يُعْطِيهِ حَجْرًا؟ وَإِنْ سَأَلَهُ سَمَكَةً يُعْطِيهِ حَيَّةً؟ فَإِنْ كُنْتُمْ وَأَنْتُمْ أَشْرَارٌ تَعْرِفُونَ أَنْ تُعْطُوا أَوْلَادَكُمْ عَطَايَا جَيِّدَةً، فَكَمْ بِالْحَرِيِّ أَبُوكُمْ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ يَهَبُ خَيْرَاتٍ لِلَّذِينَ يَسْأَلُونَهُ» (مت ٧: ٩-١١).

مُظهرًا بهذا أنه بقدر اختلاف الخير عن الشر، هكذا تعلقو بحبة الله على محبة الآباء واهتمامهم بمصالح أولادهم.

٨- لقد أعطيت هذه الأمثلة، حتى إن حدث لي أن ذكرت شهادات أخرى عن الحب، لا تدع فكري يتوقف عند القدر المُعطى من الأنبياء، بل يتابعك هذه القاعدة، فإن فكري سيحتدبك بعيداً جداً فترى فيض الحب الإلهي الذي يفوق التعبير. لأن المعايير الطبيعية لا تكفي، لكن دعها جانباً وأشخص إلى العلاء فهو يقدم أيضاً أمثلة أخرى.

٩- كما أن من يحب يريد أن يعطي دائماً أكبر عدد من الشهادات على حبه لمحبه، فهذا ما فعله الله أيضاً باستخدامه التشبيهات التي تصف المسافة من موضع لآخر، ليس أيضاً لمجرد أن تعتقد أن حبه شبيه له بالضبط، لكن لأن مقياس المسافات كان أكثر الأمثلة المذكورة (للذهن) ومعروف جيداً لمن يسمعونه.

١٠- لذلك يقول الله بضم داود: «لَأَنَّهُ مِثْلُ ارْتِفَاعِ السَّمَاوَاتِ فَوْقَ الْأَرْضِ قَوِيَّتْ رَحْمَتُهُ عَلَى خَائِفِيهِ» (مز ١٠٣: ١١)، وأيضاً «كَبُعْدِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْمَغْرِبِ أَبْعَدَ عَنَّا مَعَاصِينَا» (مز ١٠٣: ١٢)، ويقول بضم إشعياء: «لَأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارِكُمْ وَلَا طُرُقِكُمْ طُرُقِي، يَقُولُ الرَّبُّ» (إش ٥٥: ٨-٩).

إنه قال هذا بعد أن تحدث قبل ذلك عن مغفرة الخطايا وقال:

«سَأَغْفِرْ لَكُمْ تَعْدِيَاتِكُمْ تَمَامًا» (إش ٧: ٥٥ بحسب النص السبعيني).

١١- إنه قد أظهر هكذا قدر غفرانه بإعطائه هذه الأمثلة. ولم يكتف بهذه التشبيهات وحسب، بل ومضى إلى تشبيه آخر أكثر بدائية فهو يقول في سفر هوشع:

«كَيْفَ أَجْعَلُكَ يَا أَفْرَاهِيمُ، أَصِيرُكَ يَا إِسْرَائِيلُ؟ كَيْفَ أَجْعَلُكَ كَأَدَمَةَ، أَصْنَعُكَ كَصَبُؤِيمٍ؟»  
فَدِ انْقَلَبَ عَلَيَّ قَلْبِي. اضْطَرَمَّتْ مَرَا حِمِي جَمِيعاً! (هو ١١: ٨).

١٢- وما يريد أن يقوله هو هذا: إنني لا احتمل ولا حتى كلمة انتهار (لكم).

إنه عبّر (عن مشاعره) بطريقة بشرية، ليس لكي يخطر في بالك شيء بشري من جهته، حاشا لله، لكن لكي تتخيل بطريقة التعبير البسيطة ما هو الحب الجدير بالله: إنه حب حقيقي لا ينحل.

١٣- كما أن الإنسان الذي يحب بجنون ينتقي كلماته (بعناية) حتى لا يزن محبوبته، كذلك يقول الرب: «ما إن تكلمت حتى ندمت على كلامي... انقلب قلبي علي».

إن الله لم يستكف أن يستخدم هذه الصور التشبيهية التي لا تليق به لإظهار حبه، الأمر الذي هو بالضبط يختص بمن يحب.

١٤- إن الله لم يكتف بهذا، بل ذهب إلى أبعد من هذا مرة أخرى بتقديمه مثلاً آخرًا يخرق أعماق الأمور قائلاً: «لأنه كما يتزوج الشاب عذراءً يتزوجك بنوك، وكفّر العريس بالمعروس يفرح بك إلهك» (إش ٦٢: ٥).

فالحب يكون في أوجه عند البداية بين من يحبون (أي بين العروسين) وهو تكلم هكذا ليس لكي تفكر في شيء بشري - فأنا لن أتوقف عن تكرار هذا - إنما لكي بعد هذه الكلمات تلمس شدة التهاب محبته الحقيقية الفائضة.

١٥- بعد ذلك، عندما قال أنه يحب كأب وأكثر من أب، وكأم وأكثر من أم، وكعريس وأكثر من عريس، وأيضاً كعظم المسافة التي بين الأرض والسماء وأعظم من هذا أيضاً كبعد المشرق عن المغرب، بل وأكثر من هذا فإنه لم يتوقف هنا في مقارناته، بل مضى إلى حد اتخاذ مثال أكثر وضاعة أيضاً.

١٦- في الواقع إن يونان بعد هروبه ومصالحة شعب نينوى مع الله، تضايق لأن تهديداته لم تتم، وانفعل متألاً بطريقة بشرية (لا تليق بنبي) وكان ممتلئاً حزناً. فأمر الله الأرض أن تنبت يقطينة ليونان تحمي رأسه، ثم أمر الشمس أن تزيد من حرارتها فتحرقها، فتعزى يونان من اليقطينة التي أراحه الله بما من حرارة الشمس، ثم اغتم لذبولها. فلما رآه الله من ناحية تعزى ومن الأخرى تضايق، اسمع ما قاله له الله:

١٧- «فَقَالَ الرَّبُّ: «أَنْتَ شَفَقْتَ عَلَيَّ الْبَقْطِينَةَ الَّتِي لَمْ تَتَّعِبْ فِيهَا وَلَا رَيْبَتْهَا، الَّتِي بِنْتُ لَيْلَةً كَانَتْ وَبِنْتُ لَيْلَةً هَلَكَتْ. ١١ أَفَلَا أَشْفِقُ أَنَا عَلَيَّ نَيْنُوَى الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا أَكْثَرُ مِنْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رِبْوَةً مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ، وَبِهَانِمُ كَثِيرَةً!» (يون ٤: ١٠-١١).

١٨- وهذا ما أراد أن يقوله: «ألم تفرح بظل البقطينة، فكم بالحري ينبغي أن أفرح أنا بمخلص أهل نينوى؟! إن هلاك البقطينة لا يؤلمك بقدر ألمي على هلاك هؤلاء الناس، ولذلك كان موثم مضاداً لفكري».

انظر كيف مضى الله هنا أيضاً إلى أبعد من المقارنة. إنه في الواقع لم يقل: «أَنْتَ شَفَقْتَ عَلَيَّ الْبَقْطِينَةَ» ثم توقف عند هذا، بل أضاف قوله: «الَّتِي لَمْ تَتَّعِبْ فِيهَا وَلَا رَيْبَتْهَا» (يون ٤: ١٠).

١٩- بما أن البستاني يحب من النباتات التي يتعهد بها تلك التي تعب فيها بالأكثر، فإن الله إذ أراد أن يبين أنه يحب البشر وأنه يحبهم بهذا النوع من الحب أضاف قول ما معناه: «إن كنت أنت تدافع بقوة عن عمل غيرك الذي لم تعب فيه، فكم بالأولى يليق بي الدفاع عن عمل يداي!». ثم يخفف من حدة الاتهام الموجه ضدهم بقوله: «لَا يَعْرِفُونَ يَمِينَهُمْ مِنْ شِمَالِهِمْ» ومظهراً بهذا أنهم أخطأوا عن جهل وليس عن خبث، وهذا ما أظهرته توبتهم الخالصة.

٢٠- ومن يتنون بحجة أنهم متروكون يوجههم قائلاً:

«أَسْأَلُونِي عَنِ الْآيَاتِ. مِنْ جِهَةِ بَنِيٍّ وَمِنْ جِهَةِ عَمَلِ يَدَيَّ أَوْ صَوْنِي» (إش ٤٥: ١١)، وما يريد قوله هو هذا: من يذكر الأب بابنه أو يحته ليفكر فيه أو من يذكر عامل أو فنان ألا يدع عمله يتلف؟ هكذا عند البشر فإن الطبيعة والفن يكفيان لكم لإعطائكم الدليل على الاهتمام، لكن أنتم تظنون أنني احتجت لمن يدعوني للاهتمام بأولادي وأعمالي.

٢١- وهو لا يقول هذا ليمنعهم من الصلاة وإنما لكي يعرفوا أنهم قبل أن يصلوا يعمل الرب ما يحسن في عينيه، لكنه يريدنا أن نصلي لأن في الصلاة نفع عظيم. هأنت ترى بهذه الأمثلة كيف أن براهين عناية الله أكثر وضوحاً وأسطق من الشمس.

٢٢- وهذا مؤكد، فإنه ذكر مثال الأب والأم والعريس والبعد بين السماء والأرض وبين المشرق والمغرب وشبه نفسه بالبستاني الذي يتعب من أجل عمل يدي وبالمحب الولهان الذي

يخشى (حرفياً يحزن) لئلا يحزن محبوبته ولو بكلمة،... لقد أظهر الله بكل هذه الأمثلة أن حبه  
يختلف عن كل هذه الأنواع من الحب كاختلاف الخير عن الشر.

## الفصل السابع

### برهان عناية الله من الخليقة

١- إن الأدلة السابقة فيها الكفاية بالنسبة للقلوب المستعدة، لكن إذ قد تمرغ البعض في الوحل؛ وهم فئة يصعب اقتيادها وإقناعها ومتعلقين بجسدهم (وبالترايات)، لذلك فلنُظهر لهم عناية الله خلال أعماله قدر ما نستطيع، إذ يصعب علينا حصرها ولو في أقل جانب من جوانبها. إن عنايته لا نهائية ومتألثة عبر الأعمال الصغيرة والعظيمة، والظاهرة والخفية. لكننا نكتفي بالبحث في الأمور الظاهرة لنعطي الدليل عليها.

٢- إن هذه الخليقة الجميلة المتناسقة لم يصنعها الله لآخر سواك. من أجلك أبداعها بهذا الجمال وتلك العظمة والتنوع والغنى، وهي مؤهلة لتلبية كل الاحتياجات ونافعة ومحسنة بكل المقاييس قادرة على تغذية الجسد وحفظه وعلى تنمية الحياة الروحية للنفس واقتيادها نحو معرفة الله.

٣- الملائكة ليست محتاجة إلى هذه الخليقة.

كيف تكون الملائكة في احتياج إليها وهي قد وجدت قبلها؟ ولتعلم أن الملائكة أكثر قدماً منها. اسمع كيف أن الله عندما تحدث مع أيوب قال: «عِنْدَمَا تَرْتَمْتُ كَوَاكِبِ الصُّبْحِ مَعًا وَهَتَفْتُ جَمِيعَ بَنِي اللَّهِ؟» (أي ٣٨: ٧).

بمعنى أنها قد ذهلت أمام كثرة الكواكب وجمالها ونظامها ونفعها وتنوعها ونورها وتناسقها وكل صفاتها الأخرى!

٤- لكنه لم يزين السماء فقط بالنجوم، بل زينها بالشمس والقمر، جالباً لك في كل موقف مسرة عظيمة وكذلك نفع عظيم. هل هناك جمال يفوق روعة السماء إذ تتألأ بأشعة الشمس (وبدت) كأنها قد تألأت بقطرة حب ملتبهة، تنير الأرض بعدد لا يحصى من النجوم، تقود الربانة والمسافرين كأنها تمسك بيدهم؟

٥- إن من أبحر وهو جالس على الدفة أمام هجمات الأمواج واندفاع المياه الهائجة لأعلى بفعل الرياح العاتية متعهداً بعجلة القيادة في ظل ليلة غير مقمرة (يعرف ما معنى أن يكون) واثقاً في الطريق الذي يسترشد فيه بالنجوم.

٦- والنجم ولو أنه موضوع في الأعالي، فهو يقود بمنتهى الدقة كما لو كان قريباً وبجانب الإنسان الموجود على بعد شاسع، ويجتذبه إلى الميناء دون أن يكلمه، مبيناً الطريق للبحارة، ومتيحاً لهم أن يبحروا في أمن، ومشيراً لهم على الأوقات المناسبة، بحيث أهم أحياناً يحجزون السفينة في الميناء، وأحياناً أخرى يأخذونها إلى أعالي البحار وكلهم ثقة أنهم لن يعانقوا الغرق، بالرغم من عدم يقينية التنبؤ بالمستقبل من جهة سقوط عاصفة عليهم ذات يوم.

٧- إن النجوم لا تحدد فقط كل ما يفيد في تحديد محتوى السنوات والمواسم المناسبة، بل تشير بدقة كبيرة في كل ليلة إلى الساعة وحرارة الطقس، وتتيح لكل من ينظرهم أن يرى في أي وقت انقضى الجزء الأكبر (من الليل)، وفي أي وقت يتبقى الجزء الأصغر، الأمر الذي هو مفيد ليس فقط للبحارة، بل أيضاً للمسافرين (براً) لكي لا يبدأوا الرحيل في ساعة غير مناسبة من الليل، ولا يبقوا في بيوتهم في وقت مناسب للرحيل.

وبخصوص هذه النقطة فإن أطوار القمر هي مثل النجوم يمكن أن تعطي دلائل محددة يمكن الاعتماد عليها.

٨- في الواقع أنه كما أن الشمس تنظم ساعات النهار، كذلك فإن القمر ينظم ساعات الليل، فضلاً عن هذا فإن القمر يؤدي خدمات أحر، فهو ينشر هواءً معتدلاً، وهو يصنع الندى لينبت الزروع، ويفيد البشر أيضاً في تنظيم حياتهم في بيوتهم، محتلاً موقعاً وسطاً بين مجموعة النجوم والشمس اللامعة، وهو أقل لمعاناً من الشمس، لكنه فائق جداً في لمعانه عن النجوم.

٩- من هذا التنوع يتولد لمن يتأملون النجوم مسرة وفائدة غير قليلة، بل وفوائد محددة: فمنها مثلاً ما يتيح سبق رؤية الأوقات المناسبة وتحديد الزمن وتحديد الطقس... وما يؤخذ من تنوعها عسير وصفه. ويمكن رؤية نجم صغير جداً وآخر عظيم ولامع جداً، والبعض منها يظهر في أوقات مختلفة.

١٠- في الواقع إن فيض الحكمة البارعة خلقت في كل موضع تنوعاً هائلاً (من المخلوقات)، وفي نفس الوقت أعطت الدليل على قوتها الذاتية في تحقيق العجائب فهي تفكر في منفعة من ينظرونها، وتمنحهم كل أنواع الامتيازات المستحيل عدّها وتبهج العيون فوق كل هذا.

١١- أي شيء يفوق جمال السماء وقد امتدت فوق رأسك، تارة كغطاء نقي شفاف، وتارة أخرى كسهل منبسط تزينه الورود ومظهرة تاجها؟ إن المتعة بجمال الورود نهاراً لا يفوق تأمل جمال السماء ليلاً وقد تألأت بالآلاف النجوم الزاهرة التي لا تدبل، بل دائماً تُظهر جمالها النقي والفريد في نوعه.

١٢- أي منظر أكثر من هذا، إذ بمجرد اختفاء الليل وقبل أن ترسل الشمس أشعتها، عندما تكتسي السماء بغطاء بهيج من الأضواء الأولى لشرق الشمس؟ أي مشهد سيصير أكثر جمالاً من الشمس التي تشرق بعد الفجر وفي لحظة تضيئ خيوط أشعتها كل الأرض والبحار والجبال والأودية والروابي والسماء، وتجرد كل ما هو ظاهر من رداء الليل (الكثيف) وتظهرها لأعيننا في عُريها؟

١٣- كيف لا يُصاب الإنسان بالتعجب أمام مسارها ومسيرها المنتظم، وخدمتها الحرة التي لا تكل على مدى فترات طويلة من السنين، وجمالها البهيج دائماً ولمعاتها وبهائها ونقاوتها التي لا تندس أبداً رغم امتزاجها بأجساد كثيرة جداً؟ وأيضاً أمام فائدتها التي يستحيل وصفها بالنسبة للزروع والنباتات وأجساد البشر والزواحف والأسماك والأهوية والأحجار والأرض والبحار والهواء، وبالاحتصار في كل ما يُرى؟

١٤- لأن كل من احتاج إليها واستفاد من إحساناتها صار أفضل عندما نال نصيبه منها، وليس فقط الأجساد والنباتات بل أيضاً المياه والمستنقعات والينابيع والأنهار وطبيعة الهواء ذاتها بما تتخفف وتنقي وتكون أكثر شفافية.

١٥- لهذا إذ أراد إظهار جمالها ونورها المشع دائماً، واللحظة التي فيها تُدرك قمة ارتفاعها وبهاءها وشكلها الكامل والخدمة التي تؤديها بكامل حريتها وبلا كلل، قال المرتل: «جَعَلَ لِلشَّمْسِ مَسْكناً فِيهَا» (مز ١٩: ٤).

أي في السموات عينها. وهو قال هذا في حديثه عن خيمة الله. «وَهِيَ مِثْلُ العُرُوسِ الخَارِجِ مِنْ حَجَلَتِهِ. يَبْتَهِجُ مِثْلَ الجَبَّارِ لِلسَّبَاقِ فِي الطَّرِيقِ» (مز ١٩: ١٥). ثم إذ أراد أن يظهر الحرارة التي بها تتم خدمتها، فإن المرتل أضاف قوله: ثم تكلم عن الطريقة التي بها تكفي وتخدم الأرض كلها فقال: «مَنْ أَقْصَى السَّمَاوَاتِ خُرُوجُهَا، وَمَدَارُهَا إِلَى أَقْصِيهَا، وَلَا شَيْءٍ يَخْتْفِي مِنْ حَرِّهَا» (مز ١٩: ٦)، وأخيراً عن المنفعة والمعونة التي تعضد بها الكل فقال: «وَلَا شَيْءٍ يَخْتْفِي مِنْ حَرِّهَا» (مز ١٩: ٦).



١٦- إن كنت لا تسأم التأمل، فإنك تستطيع أن تتطلع إلى عناية الله في شهود كثيرين:

في السحاب، فصول السنة، دورات النجوم، الرياح، البحر وكل أنواع الكائنات التي فيه، الأرض وكل ذوات الأربع التي تقطنها، الزواحف، الطيور التي تطير في الهواء، الحيوانات البرية والحيوانات اليرمائية التي تعيش في المستنقعات، الينابيع، الأنهار، الأرض المأهولة بالسكان وغير المأهولة بهم، الزروع التي تنبت، الأشجار، النباتات وكل ما ينبت في المناطق الصحراوية.

١٧- نباتات السهول، الوديان الضيقة، الجبال، النباتات التي تنمو من ذاتها، الثمار الناتجة عن الجهد والزراعة، الحيوانات المستأنسة وغير المستأنسة، الحيوانات المتوحشة والأليفة، الصغير والكبير (منها)، الطيور التي تظهر في الشتاء وفي الصيف وفي الربيع، ذوات الأربع والأسماك، النباتات، الأعشاب، ما يجي في الليل وما يجي في النهار، الأمطار، تحديد السنوات، الموت.

١٨- الحياة، التعب الذي نتشارك فيه جميعنا، الحزن، الاستكانة، الأكل والشرب المعطى لنا، الآداب، الفنون، الخشب، الحجر، الجبال التي تحفي المعادن (داخلها)، البحر المؤهل للملاحة، أيضاً غير الصالح للملاحة، الجزر، الموانئ، الأماكن شديدة الانحدار، ما يظهر على سطح البحر، الذي في عمق المياه، عناصر الطبيعة التي بها تشكل العالم لنا، توزيع المواسم، الطول المتفاوت والاختلاف للنهار والليل.

١٩- المرض، الصحة، أعضاء جسدنا، ترقية نفسنا، الفنون، المهارة التي تتطلبها هذه الفنون والتي قد أعطيت للبشر، الامتيازات التي أمدتنا بها الحيوانات غير العاقلة التي نخدمنا، النباتات وغيرها من المخلوقات. هل يوجد أصغر من الفراشة وأحقر منها؟ أو مثل النمل أو النحل؟ ومع هذا فهذه جميعها تحدث عن عناية الله وقدرته وحكمته!

٢٠- من أجل هذا، إذ تأهل النبي بالروح للتأمل في الخليقة كلها، وقد ذكر بعض التفاصيل الخاصة بها، وقع تحت تأثير دهش عظيم فصرخ قائلاً: «مَا أَعْظَمَ أَعْمَالِكَ يَا رَبُّ! كُلُّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ» (مز ١٠٤: ٢٤)، وكل هذا لأجلك أيها الإنسان!

٢١- حقاً، فإن أهوية السماء (الرياح) أيضاً قد خلقت لأجلك - لأننا سنعود مرة أخرى إلى بداية حديثنا - لتنعش أجسادنا المتعبة وتخفف المناطق الموحلة وتخفف شدة حرارة أشعة الشمس وتزيح الهواء المثلث بالدخان والعوادم الأخرى، وتخفف اختناقات الصيف، وتنمي الزروع وتساعد على الإبحار، وفي الأرض تستخدم في خدمة الزراعة.

فهي تارة تدفع السفن بسرعة أكثر من السهم وتجعل هكذا الملاحه سريعة ومقبولة.

٢٢- وتارة تعمل معك مندرية فتفصل التبن عن القمح، مخففة بمجهود العمل، لجعل الجو أخف وألطف ليفتنك، وأحياناً تمس الأهوية بلطف وبسرور، وأحياناً تمب بنسمة خفيفة على النباتات وتحرك أوراق الشجر.

٢٣- من أجل حصولك في الصيف وفي الربيع على نوم ألد وأحلى من العسل فإن الهواء يرف على وجه مياه البحار والأنهار كما يؤثر في الشجر، فالأهوية تظهر نفسها لتعطيك مسرة لدى رؤيتها وقبل هذا تؤدي لك خدمة عظيمة.

٢٤- بالإضافة إلى هذا فإن هذه الأهوية مفيدة للمياه، لأنها لا تدع الماء يفسد من الركود، بل هي تحركه على الدوام وتوويه وتجدهه وتجعله جارياً وأهلاً أكثر لطعام وشراب المخلوقات التي ترتفع فيه

٢٥- وإن أردت البحث في الليل، فإنك تنظر فيه أيضاً العناية اللائمه للخالق، فإنه يعين جسدك المتعب، ويريح أعضاء جسمك المجهدة من أتعاب النهار فتعمل فيها تغيير وتعدها من جديد وبالراحة تستعيد عافيتها.

٢٦- وليس هذا فقط، بل هو يخلصنا من الأتعاب التي تحمل بنا كل يوم، ويريحنا من الاهتمامات المزعجة، بل أحياناً يهدئ الحمى، إذ يقود الإنسان إلى نوم يكون بمثابة علاج له، فيصل هكذا بالفن المتردد للأطباء إلى ميناء الهدوء وينقذ الإنسان من آلام متعددة. بهذا القدر فإن الليل مفيد، بل وعظيمة هي ميزاته، فمن يُحرم من راحة الليل غالباً ما يخسر النهار.

٢٧- في الواقع إن رفض الإنسان أن يعطي عقله هدوءاً، فإن استجمام وهدأة الليل التي بواسطتها يستريح كل شيء وبفضلها تستعد النفس المجهدة والجسد المتعب لمباشرة عمله اليومي بنشاط وافر، ففي هذه الحالة نجد أن الكائن الحي يبدو وكأنه عاجز عن تأدية أية خدمة.

٢٨- لو أن شخصاً أضاف الليل إلى النهار وبقي مستيقظاً، حتى إن عمل أو لم يعمل شيئاً واستمر على هذا الحال، فإنه حتماً سيموت أو على الأقل سيصير فريسة لمرض طويل، ولن يجني شيئاً من النهار لإبداء النشاط المفيد، لأن قوته قد انطفت.

٢٩- بالإضافة إلى هذا لو جعلنا حديثنا يمتد إلى العالم الهائل للأسماك وعالم المستنقعات والينابيع والأنهار والبحار الصالحة للملاحه وغير الصالحة لها، أو لو لاحظنا (عن كتب) أجناس

الطيور المستحيل وصفها، تلك التي في الهواء والتي على الأرض وتلك التي تعيش في الهواء والأرض معاً، لأنه يوجد عدد كبير منها بر هوائي... تلك الرديئة والأخرى لطيفة المعشر، وتلك التي كانت متوحشة، وتلك التي تؤكل والتي لا تؤكل، هذا غير لو فحصنا بتدقيق جمال الريش والصوت الجميل لكل واحد منها.

٣٠- لو نحن تأبرنا فقط على متابعة اختلاف غنائهم وطعامهم ونوع حياتهم، ثم وصفنا عاداتهم وسلوكهم وفائدتهم وكل الخدمات التي يؤدونها لنا، وأحجامهم الكبيرة والصغيرة، والطريقة التي بها يُلدون وطعامهم واختلافهم الهائل والمستحيل وصفه، ولو فعلنا نفس الشيء للأسمك ومنه عبرنا إلى النباتات وفحصنا ثمارها ورائحتها الزكية وتركيبها وأوراقها وألوانها والخدمات التي تؤديها وطريقة زراعتها.

٣١- إن كل هذا لأجلك أيها الإنسان!

الفنون لأجلك، الآداب، المدن، القرى، النوم لأجلك، الموت لأجلك، الحياة لأجلك، النمو، وكثير من الظواهر الطبيعية. وهذا العالم على عظمته لأجلك، الآن وفيما بعد عندما يصير أفضل. وكون العالم سيصير أفضل لأجلك فهذا ما يؤكد بولس بقوله: «لأنَّ الخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضاً سَتُعْتَقُ مِنْ عُبُودِيَةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلَادِ اللَّهِ» (رو٨: ٢١). أي ستعق من كونها فاسدة. وكونها ستعق بمثل هذا الشرف لأجلك فهذا ما يظهره بولس بقوله: «إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلَادِ اللَّهِ» (رو٨: ٢١).

٣٢- لو لم يكن حديثي قد استطال جداً وفاق الحد لكنت تحدثت (أكثر) عن دروس روحية مستفادة من الموت، ولأظهرت فيه بالذات عناية الله وحكمته، (وكنت) سأقول أشياء كثيرة عن الفساد والتحلل والدود والرماد الذي تجزع أمامه غالبية الناس وتنتحب لأن جسدنا تحول إلى تراب ورماد. بل سأظهر بعد هذا عنايته التي لا توصف وصلاحه الممتلئ اهتماماً (بنا).

٣٣- فإنه قد خلقنا نحن الذين كنا عدم بفعل عنايته وصلاحه، ولنفس السبب هو أرادنا أن نموت وننتهي بهذه الطريقة. لأنه ولو أن الأشياء المخلوقة مختلفة لكنها نتاج نفس الصلاح. من قد رحل لن يصير متضرراً، ومن عاش سيجني منفعة عظيمة، إذ يجد في الجسد الذي مات أمامه درساً روحياً.

٣٦- عندما يرى الإنسان رفيقه الذي كانت يسير بجانبه بالأمس والأيام السابقة قد تحلل وأكله الدود وتحول إلى تراب رماد، فحتى لو كان له عجرفة الشيطان فسيصيبه الخوف ويتذلل وينقاد إلى الاعتدال ويتعلم التأمل، ويُدخل في اعتباره التواضع مصدر كل الخيرات.

٣٧- ثم إن من رحل، لن يُصاب بأذى، لأنه سينال بالمقابل جسد غير فاسد وخالد، ومن هو لا يزال على قيد الحياة سيحني منافع عظيمة جداً من كون المائت لم يتضرر (بل انتقل إلى حالة أفضل). إن الموت قد أعطي لكياننا كمعلم بارز للحياة الروحية، مهذباً لفكرنا ومقيداً لأهواء النفس ومهدناً زوابعها ومقيماً فيها السكون.

٣٨- والآن بعد كل ما قلناه وبعد أشياء أخرى أيضاً، قد فهمت أن عناية الله تفوق أشعتها ضياء النور الأرضي، فلا تفحص بفضول الأمور التي تعلو قامتك ولا تسعى لأشياء لا تدرك، ولا تبحث عن علة كل شيء فوجودنا ذاته هو هبة معطاة لنا من قبيل صلاحه الفائق، إذ ليس هو محتاجاً إلى عبوديتنا.

٣٩- إذاً فلنحبه ونعبده لأنه خلقنا، لا لأنه وهبنا نفساً روحية عاقلة، ولا لأنه جعلنا أسمى خليقته، ولا لأنه أعطانا سلطاناً على المنظورات، وإنما لأنه لم يكن محتاجاً إلينا. هذه هي علامة حبه العظيم أنه أوجدنا لخدمته بالرغم من عدم احتياجه لعبوديتنا، فإنه قبل أن يخلقنا أو يوجد الملائكة والقوات السمائية كان كائناً في مجده الذاتي وقداسته. لكنه دعانا إلى الوجود من أجل حبه وحده. من أجلنا صنع كل هذا وأمور أخرى.

## الفصل الثامن

دليل عناية الله بنا أنه أعطانا الناموس الطبيعي والناموس المكتوب، وأخيراً صار أساس كل الخيرات في نوال النعمة بمجى الابن الوحيد.

١- لقد وهبنا الله ناموساً مكتوباً لنفعا وأرسل الأنبياء وصنع المعجزات وقبل كل هذا قدم للإنسان بعدما خلقه ناموساً طبيعياً لخدمته، يقوم بدور القبطان في السفينة، وكاللحام بالنسبة للحصان، مخضعاً له تفكيرنا.

هذا عرفه هايل بينما لم يكن قد وجدت بعد كتب مقدسة أو أنبياء أو رسل أو أي تعليم مُعطى بناموس مكتوب، بل كان له (فقط) الناموس الطبيعي.

٢- وعرفه قاين أيضاً. عرفه الاثنان وعرفا سيادته عليهما، لكنهما لم يسيرا في ذات الطريق؛ بل اختار أحدهما طريق الرذيلة والآخر طريق الفضيلة. ومع هذا لم يترك الله الإنسان في هذا الموقف، لكنه إذ سقط جذبته وأعادته إلى الطريق المستقيم، وأحاطه بحبه وأخذ يَحْتَبُه وينصحه، كما أنذره بالخوف والرعدة. كان الله يعلمه ويدربه.

٣- لكن حيث أن غالبية البشر خانوا هذه النعمة العظيمة، أي الانتفاع مما يلقنه إيانا الناموس الطبيعي - حتى في هذه اللحظة - فإن الله لم يترك البشرية ولا أسلمها إلى الهلاك الأبدي (حرفياً الهلاك الشامل)، بل انتظر عليها (وصبر) وأخذ يعلمها ويحثها بأعماله وعطاياه وتأديباته، بالخليقة ذاتها التي تتجدد كل يوم وتؤدي مهمتها المعتادة، بالأشياء التي تتم مغايرة للترتيب الطبيعي، وبأبرار العصور الأولى.

٤- إنه في الواقع نقل هؤلاء الأبرار الحديرين بالإعجاب والممثلين إيماناً من موضع إلى آخر، فعلى سبيل المثال نقل إبراهيم أولاً إلى أرض كنعان ثم مصر، ويعقوب إلى سوريا (الأصح العراق)، ثم موسى كان في مصر، والثلاثة فتية في بابل، ودانيال وحزقيال (أيضاً في بابل) وإرميا في مصر. وأعطى ناموساً وأرسل أنبياء، وكان يضرب مؤدباً ثم يرخي صرامته، ويسلم إلى العبودية ثم يمنح العتق ولم يكف عن تدبير كل الأمور لصالحنا منذ البداية إلى النهاية.

٥- ولكنه لم يكتف بالتعليم المُعطى بواسطة الناموس الطبيعي (الذي يأتي بالناس إلى معرفة الله)، لكن حيث أن كثير من البشر لم يجنوا أية منفعة بسبب جهلهم، فإنه افتتح طرق أخرى لتعليمهم، وأخيراً كلل إحساناته بإرسال ابنه الوحيد.

٦- إن الابن المساوي للآب في الجوهر صار مثلي! كان يسير على الأرض ويختلط بالبشر  
ويصنع عجائبه بينهم، صانعاً مواعيداً بينهم، وأتممها بينهم، ومنحهم هنا على الأرض بعضاً  
من هذه الخيرات، وحفظ الأخرى للدهر الآتي. والبرهان على أنه سيعطيها، هو المعجزات  
التي أتممها عندما كان لا يزال على الأرض، وبعد ذلك إتمام ما قد سبق أن أعلنه <sup>٢</sup>«نَ يَتَكَلَّمُ  
بِعَجَبَاتِ الرَّبِّ؟ مَنْ يُخْبِرُ بِكُلِّ تَسَابِيحِهِ؟». (مز ١٠٦: ٢).

من لا يندهش؟ من لا يقف مرتعداً أمام اهتمامه الذي لا يوصف (بنا)، إذ يتأمل كيف أن  
الله أسلم ابنه الوحيد للموت من أجل عبيد جاحدين؟! بذله إلى موت اللعنة والهزء؛ موت  
المجرمين!؟

٧- لقد سُمر على صليب مرتفع وبصقوا على وجهه! ضربوه بالعصي ولطموه! استهزأوا به  
وإذ أشفقوا عليه كفتوه وختموا قبره!

هذا كله احتمله من أجلك! من أجل حبه المملوء رافة، حتى يعتقك من عبودية الخطية،  
ويكسر سلطان إبليس ويحطم قيود الموت، ويفتح لنا أبواب السماء، ويزيل اللعنة، ويمحو الخطية  
الأولى ويعلمك الصبر، ويقودك إلى الاحتمال فلا تتضايق من أمور العالم، لا موت ولا لعنات  
ولا شتائم ولا هزء ولا ضربات ولا مكائد عدو ولا افتراءات ولا هجوم ولا أقامات أو إساءة  
ظن ولا شيء من هذا القبيل.

٨- لقد اجتاز هو هذا كله مشاركاً لك كل ألم، غالباً إياها بأسلوب عجيب، حتى يعلمك  
ويرشدك ألا تخاف شيئاً من هذه المنح. ولم يكتف بهذا، بل إذ صعد إلى السموات وهبنا نعمة  
روحه القدوس العجيبة، مرسلًا تلاميذه ليكونوا في (حقل) خدمته.

٩- وإذ ترى أن هؤلاء الكارزين بالحياة تألموا كثيراً: ضُربوا بالعصي، وأهينوا وطُرحوا في  
البحار وعانوا من الجوع والعطش، وهم محاطين كل يوم بالضيقة وعائشين وسط أخطار يومية  
مميته، وقد سمح لهم بهذا كله من أجلك ومن أجل صلاحه المملوء عناية بك. من أجلك يا إنسان  
أعدّ الملكوت! ولأجلك أعد خيرات لا توصف ونصيياً محفوظاً في السموات وحياة لا مثيل لها  
مملوءة غنى وسعادة لا يُنطق بها.

١٠- بينما لك براهين كثيرة على عنايته في العهد القديم والجديد، في الحياة الحاضرة والآتية،  
فيما سيصير وما هو كائن، فيما يتم كل يوم، فيما يليه وحتى فيما هو دائم في الأمور الجسدية  
والروحية، فهل تشك وأنت ترى في كل جانب سحب من البراهين التي تعلن عنايته؟

١١- كلا، لا تشك بل ثق أنه يمارس عنايته وتيقن من هذا. لا تضع بعد أسئلة سخيفة، علماً تماماً أن لك سيداً أكثر عظماً عليك من الأب وأعظم حنواً من الأم وأكثر حباً من العريس أو العروس المتيمة، مفكراً أن راحته هي في خلاصك، ويتتهج هو بخلاصك أعظم من ابتهاجك وأنت هارب من الأخطار والموت، وقد برهنت لك (هذا) بمثال يونان، مظهراً (لك) كل أشكال الحب.

١٢- حب الأب لأولاده والأم لصغارها والبستاني لنباتاته والمهندس المعماري لعمله والعريس الحديث الزواج لعروسه والشاب للفتاة، حبه يريد إبعاد البلايا عنك بقدر المشرق عن المغرب، وبقدر علو السماء عن الأرض. هذا أيضاً أوضحناه وأفضل جداً ليس فقط بقدر هذا، بل أيضاً وأكثر من هذا كما أظهرنا في استئثار الفكر حول هذه النقطة وتعهذك بعدم التوقف عند الصور (التشبيهية) بل يتخطى البراهين (العقلية)، لأنه يستحيل التعبير عن عنايته وحنانه غير المدرك وصلاحه الذي لا يُعبّر عنه وحبه الذي لا يستقصى.

١٣- الآن وقد عرفت هذه الأمور جميعها التي من خلالها يعلن الله لك عن ذاته وأعماله التي صنعها وسببها معك، فلا تسأل أسئلة فضولية ولا تتكبر ولا تقل: لماذا هذا وما سبب ذلك؟ ألا يكون هذا جنوناً وامتلاءً بكبرياء مفرطة واختلالاً عقلياً؟ فبينما لا يكابر أحد مع الطبيب الذي يُجري له الجراحة ويكوي ويوصي بأدوية مرّة، حتى وإن كان الطبيب عبداً، فإن سيده يحتمله في صمت بل ويشكره على كيّه (المؤلم) وعلى جراحته وأدويته (المرّة)، وهذا رغم أن المستقبل غير مضمون إذ أن مرضى كثيرين ماتوا على أيدي أطباء؛ فبينما تتم الطاعة بكثير من الخضوع للطبيب عندما يتصرف هكذا، وبينما نفس الشيء يتم مع القبطان والمهندس المعماري ومع كل من لهم كفاءات في مختلف الأنشطة، فكم بالأولى يليق بالإنسان أن يخضع للديان والمهندس صاحب السلطان على كل شيء؟!

١٤- إن كان من الغباء أن يستفسر إنسان جاهل بلا خيرة من المهندس عن أسباب كل ما يصنعه، هكذا أيضاً من الغباء وضع أسئلة طائشة عن هذه الحكمة العجيبة غير المنطوق بها وغير المحدودة، والبحث لماذا حدث هذا أو ذلك، ونحن متأكدون تماماً من حكمة صانعه التي لا تخطئ، وصلاحه اللانهائي، وعنايته التي لا توصف، فكل ما يأتي منه موجه إلى هدف سامي،

بشرط أن نشاطنا لا يعيقه، إذ لا يريد هلاك أحد بل خلاصه.  
أليس هذا انحراف في الفكر يفوق كل جنون أن نبدأ في أن نسأل ذاك الذي يريد ويستطيع  
أن يخلصنا كلنا ولا ننتظر (لنرى) حتى نهاية الأحداث؟



## الفصل التاسع

### لا ينبغي السعي لفحص الأحداث

#### بل يلزم الانتظار إلى النهاية

١- في الواقع ينبغي للإنسان فوق كل شيء ألا يسأل أسئلة فضولية، لا في البداية ولا بعد ذلك، لكن إن كنت أنت هكذا فضولي ومتطفل، فانتظر إلى النهاية لترى إلى أين تفضي الأحداث، ولا تفعل أو تترعج منذ البداية.

٢- كما أن الإنسان العديم الخبرة، في رؤيته لمن يسبك المعادن وهو يبدأ في صهر الذهب وخلطه بالرماد والقش - فلو لم ينتظر إلى النهاية - سوف يظن أن تلك القطعة الصغيرة من الذهب قد فقدت، كذلك لو أن إنساناً ولد ونشأ في البحر، ثم انتقل بعد ذلك ليسكن في البر ولم يكن قد سمع قط عن طريقة الزراعة: فلو رأى القمح قد عزل عن القش وحُفظ في مخازن مغلقة بعيدة عن الرطوبة، ثم يعود الفلاح فيأخذ منه وينثره في الهواء وينشره على الأرض أمام كل العابرين، ليس فقط لا يضعه في مأمن من الرطوبة بل أيضاً يلقيه في الطين والوحل دون أية حماية، ألا يظن أن القمح قد فسد وألا يلوم الفلاح الذي تصرف هكذا؟

٣- أما هذه الملامة فهي ليست صنعة طبيعة الأشياء، بل هي من فعل عدم خبرة وحماقة... من لم يحكم حسناً في تعبيره منذ البدء... على رأي غير واضح. لأنه لو انتظر الصيف ولو رأى الحصاد الوفير والمنجل يُشحذ، وهذا القمح الذي نُثر وبقي متروكاً وفسد وتحلل وسُلم للطين، نفس هذه البذار نبتت وتكاثرت وظهرت ناضرة وتجردت من قشرها العتيقة وانتصبت بكل قوتها كمن هي محاطة بنجوم صغيرة ومحاطة بحرس، رافعة ساقها في الهواء، فأنه به المشاهد تغذيه وتقدم له غلة وفيرة، حينئذ سيُصاب بدهشة عظيمة جداً من هذه الحبات التي عبر أحداث كثيرة قد آلت إلى حالة ازدهار وإلى مثل هذا الجمال.

٤- وأنت يا إنسان لا تسأل سيدنا (ربنا) بالذات أي سؤال، لكن لو كنت متعطشاً للنقاش ومتجاسراً جداً لتطيش. يمثل هذه الحماقة فانتظر إلى نهاية الأحداث. في الواقع لو أن الفلاح انتظر نهاية الأحداث ولم ينظر إلى المعاملة التي تُعامل بها البذور أثناء موسم الصقيع، بل للفوائد

التي سيحنيها، فكم بالأولى يلزمك أن تنتظر حتى النهاية من يفلح الأرض كلها ونفوسنا، ولا أقول لنهاية الحياة الحاضرة فقط - لأنه يحدث كثيراً أن لا يتحقق هذا على الأرض - بل لنتنظر إلى الحياة الآتية. فمقاصد الله ترمي في كلا الحياتين إلى خلاصنا ومجدنا. ولو أنها حياة مجزأة من جهة الزمن، لكن الهدف يعطيها وحدتها، فكما أنه تارة يكون شتاء وتارة أخرى ربيع، فإن ابتاق كل واحد من هذه المواسم يهدف إلى نتيجة واحدة وهي نضوج الثمر، هكذا يكون الأمر فيما يخصنا.

٥- عندما ترى الكنيسة مشتتة وتعاني أسوأ الاضطهادات، وقد طرد رؤساؤها وضربوا بالعصي، لا تحصر ذهنك في حدود هذه المحن، بل تطلع إلى النهاية لترى المكافأة والجماعة ممن الكفاح والجهاد، فالكتاب يقول: «الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص» (مت ١٠: ٢٢).

في العهد القديم عندما لم تكن عقيدة القيامة قد انتشرت بعد، فإن كلا الشقيين (الجهاد والمكافأة) كانا يتحققان في الحياة الحاضرة، لكن في العهد الجديد ليس الأمر كذلك دائماً، بل توجد حالات تحدث فيها أشياء مؤلمة هنا في الأرض، أما السعادة فتنتظرنا بعد رحيلنا من هنا (من أرض الشقاء).

٦- لكن ولو أن السعادة التي يمكن توقعها في هذه الحياة قد تحققت لهم في الزمن الحاضر، فإن الذين لم ينعموا بهذه السعادة (هنا على الأرض) حديرون بأن ينالوا الإعجاب، إذ بدون معرفة واضحة لعقيدة القيامة وفي رؤيتهم لأحداث مضادة لوعود الله، لم يعثروا أو يكونوا مترعجين أو مضطربين، بل فوضوا أمرهم إلى عناية الله الفائقة الإدراك دون أن يعثروا من البلايا، إذ يعلمون غنى وبراعة حكمته، فانتظروا للنهاية، (بل) وقبل النهاية وكل ما أتى عليهم احتملوه بشكر، ولم يتوقفوا عن تمجيد الله رغم أنه سمح بهذه التجارب. لكن لعل حديثنا يبدو غامضاً بعض الشيء، لذلك سأجتهد في أن أجعله أكثر وضوحاً.

## الفصل العاشر

### أبرار العهد القديم انتظروا نهاية الأحداث

١- كان إبراهيم شيخاً، ولكبر سنه صار جسده مماتاً عن الإنجاب، وكان كالأموات لا يمكن أن يكون أباً، لكنه استمر في الحياة - (وقد تخطى البار الزمان الذي فيه يمكن للطبيعة (الجسدية) أن تمب نسلًا وكانت سارة التي كان عقمها كعقم الحجارة شريكة له حينما أعلن له الرب أنه سيحمله أباً لجمهور كثير ككثرة نجوم السماء.

٢- هذه هي العقبات التي صادفت إبراهيم، أنه وصل إلى سن الشيخوخة. أما بالنسبة لامرأته فهي وصلت إلى سن الشيخوخة والطبيعة (ذاتها) جعلتها عاجزة عن الحمل، لأنه لم تكن الشيخوخة هي فقط التي تمنعها، بل عجز طبيعتها أيضاً. وعندما كانت لم تنزل حديثة السن، فإن القدرة التي تعطيها الطبيعة ظلت غير تأثير، لأن هذه المرأة كانت عاقراً.

٣- وقد وصف بولس هذا الحال فقال « وَلَا مُمَاتِيَّةٌ مُسْتَوْدَعٌ سَارَةَ » (رو٤: ١٩). إنه لم يقل «ولا ممتية سارة» و فقط، لئلا يظن أحد أن العقبة هي السن وحده، بل قال «ولا ممتية مستودع سارة» التي كانت هكذا عاقراً، ليس بسبب العمر المتقدم فقط، بل أيضاً بسبب طبيعتها (العاقرة). ولكن كما سبق أن قلت أنه بالرغم من وجود هذه العقبات، فإنه (أي إبراهيم) عرف معنى وعد الله وطرقه الكثيرة وإمكاناته العظيمة التي لا تعوقها قوانين الطبيعة ولا صعوبة الأمر ولا أي شيء مهما كان، إنما (قدرته الإلهية) تسير بنا وسط العوائق لتحقيق ما قد سبق أن أعلنته.

٤- صدق إبراهيم ما قيل له وآمن بالوعد دون أن يتأثر بسبب تضارب المنطق، وقد حسب بالحق أن قدرة مَنْ قد وعد تعطي ضماناً لما قد أعلنه دون أن يبحث عن الطريقة التي سيتم بها هذا الوعد، ولا تساءل: لماذا لم يأتي الوعد في صباه، بل في شيخوخته بعد وقت طويل متأخر جداً.

٥- كذلك فإن بولس يعلن اسمه بصوت عال قائلاً: «فَهُوَ عَلِيٌّ خِلَافَ الرَّجَاءِ آمَنَ عَلَيَّ الرَّجَاءِ، لَكِنِّي يَصِيرُ أَبًا لِأُمَّمٍ كَثِيرَةٍ كَمَا قِيلَ: «هَكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ» (رو٤: ١٨). وما معنى «على خلاف الرجاء آمن على الرجاء»؟ أي على خلاف الرجاء البشري آمن بالرجاء بالله الذي يغلب في كل شيء ويستطيع كل شيء ويسمو فوق كل شيء!.

لم يؤمن فقط أنه سيكون أباً، بل وأباً لأمم كثيرة، وهو الذي كان شيخاً غير قادر على الإنجاب وزوجته عاقرة وفي سن الشيخوخة كما قيل له.

٦- « وَإِذْ لَمْ يَكُنْ ضَعِيفاً فِي الْإِيمَانِ لَمْ يَعتَبِرْ جَسَدَهُ وَهُوَ قَدْ صَارَ مُمَاتاً، إِذْ كَانَ ابْنٌ نَحْوَ مِئَةِ سَنَةٍ - وَلَا مُمَاتِيَّةَ مُسْتَوْدَعِ سَارَةِ، وَلَا بَعْدَمَ إِيْمَانِ ارْتَابَ فِي وَعْدِ اللَّهِ، بَلْ تَقَوَّى بِالْإِيمَانِ مُعْطِياً مُجْداً لِّلَّهِ. وَتَيَقَّنَ أَنَّ مَا وَعَدَ بِهِ هُوَ قَادِرٌ أَنْ يَفْعَلَهُ أَيْضاً. » (رو ٤: ١٩-٢١).  
إن معنى هذه الكلمات هو الآتي: بعد أن تحرر إبراهيم وتخلص في الحال من الضعف البشري، وبعد أن ارتفع إلى سمو من قد وعد وتفكر في قدرته التي لا توصف، جعل نفسه يقتنع متيقناً أن كلمته ستتحقق تماماً.

٧- لقد مجدَّ الله لأنه لم يكن فضولياً، ولا سأل في طياشة، وإنما خضع لحكمة الله غير المدركة ولقدرته، بغير نقاش فيما قيل له. أما كيفية تمجيدنا لله فهذا في خضوعنا دائماً أمام عنايته غير المدركة وأمام قدرته وحكمته التي لا توصف. ولا نكون فضوليين ولا نسأل بتهور: لماذا هذا؟ وما سبب ذلك؟ وكيف يتحقق هذا الأمر؟!

٨- لم يستحق إبراهيم الإعجاب في هذا الموقف وحده، بل حينما لم يعثر في أمر الرب له أن يقدم ابنه الوحيد، ابن الموعد، محرقة، مع أن هناك أسباباً كثيرة كان يمكن أن تعثر من كان غير منته ولا متيقظ. أولاً: إن كان الله يقبل مثل هذه المحرقات فهذا شيء مُعثر. ثانياً: كونه يوصي الآباء بقتل أبنائهم وأن يضعوا نهاية لحياتهم بميته وحشية وتكبيدهم موت مبكر وبكوتهم قتلة لفلذة أكبادهم هذا أيضاً معثر. ثالثاً: إنه أمر متعب كون الله يريد أن يتنجس بدمائهم إن كان يريد أن اليد الأبوية (الحانية) توجه ضد ابن وحيد، وأن إنساناً باراً يكون أكثر وحشية من القتلة.

٩- علاوة على ذلك هناك طغيان الطبيعة الظاهر بشدة ويزعجه، ليس لأنه كان أباً وحسب، ولكن لأنه كان أباً لابن وحيد شرعي مبهج للرؤية ويسر من يبصره، فهو في الواقع كان في ريعان الشباب وأدرك قمة الفضيلة ويشع بجمال مضاعف للنفس والجسد.

١٠- كان إسحق محبوباً جداً، إذ وهب له على خلاف الرجاء. لأنك تعلم مدى حب الآباء للصغار الذين يأتون على خلاف كل رجاء، ويمنحون بطريقة مخالفة للطبيعة في الشيخوخة، كما هو الحال مع إسحق. وفوق كل هذا فإن الشيء الأكثر جلباً للعثرة كان الإعلان والوعد، لأن الأمر (بالذبح) كان مخالفاً لها.

فإن الله من ناحية أعلن له «أن نسله سيكون مثل نجوم السماء في الكثرة» (انظر تك ١٥: ٥) ومن ناحية أخرى قد أعطي أمراً من الله أن يسلم ابنه - وهو الذي به سيتحقق الوعد في الكثرة - إلى الموت ويدبجه بطريقة وحشية.

١١- لكن البار لم يُعثر ولا اضطرب ولا انتابته المشاعر الطبيعية لمن بدون تفكير يدعون أنفسهم ينجذبون نحو الأرض لأنه لم يقل في نفسه: ما هذا، هل أنا مخدوع؟ هل ضللت؟ هل هذا الأمر (حقاً) من قبل الله؟ لا، إلى الخلف! فلن أطيع هذا الأمر. إنه أمر يناقض العدل أن أكون قاتلاً لابني وأحضب يدي بدمه. كيف يتحقق الوعد؟ إن أهلكت الأصل من أين تأتي الأغصان؟ وكيف تأتي الثمار؟ إن نرحت المصدر من أين تخرج الأثمار؟ لو ذبحت ابني من أين يأتي النسل الوفير الذي يعادل عدد النجوم.

١٢- فكيف يعدي بشيء ويأمرني بشيء مضاد؟

إن إبراهيم لم يقل هذا ولم يفكر أبداً في كل هذا، بل التجأ إلى قدرة من قد أعلن له مثل هذه الأمور، إذ له قدرة لا توصف وهو خصب في طرقة ووسائله التي تلمع وسط الأحداث المخالفة، وهو يسود على قوانين الطبيعة، وهو أكثر قدرة من الكل ولا يمكن لشيء أن يعارضه، ولا يعرف المستحيل.

فأطاع إبراهيم الأمر وذبح وحضب يده بالدماء وحمر به السيف واخترقت السكين الرقبة. وإن كان هذا لم يتم فعلاً، لكنه تحقق بالنية إذ أتم كل هذا بالفكر.

١٣- لهذا فإن موسى وهو ممتلئ إعجاباً به تكلم هكذا: «وَحَدَّثَ بَعْدَ هَذِهِ الْأُمُورِ أَنَّ اللَّهَ امْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لَهُ: يَا إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هِنَذَا». فَقَالَ: خُذ ابْنَكَ وَحَيْدَكَ الَّذِي تُحِبُّهُ إِسْحَاقَ وَادْهَبْ إِلَى أَرْضِ الْمُرِيَا، وَأَضَعْدُهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ الْجِبَالِ الَّذِي أَقُولُ لَكَ». (تك ٢٢: ١-٢). هل كانت هذه (الكلمات تتفق مع) الوعد، كلمات الإعلان، تلك التي كانت تقول أنه سيكون أباً للنسل وفير وأن نسله سيكون في كثرة نجوم السماء؟

١٤- انظر كيف أنه بعد هذه الكلمات (التي وعده الله فيها بنسل وفير) تلقى أمراً بذبح ابنه، فقبل أن يميت ويدبح من ينبغي أن يخرج منه نسلاً وفيراً ويقطعه من وسط الأحياء ويقدمه محرقة لله.

أما بولس الذي أعجب به لهذا السبب فقد توجه بأكاليل وأشهر اسمه قائلاً: «بِالِإِيمَانِ قَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ إِسْحَاقَ وَهُوَ مُجْرَبٌ» (عب ١١: ١٧). ثم أظهر عظمة الفعل الذي أمته وأي إيمان قد برهن عليه فأضاف قوله: «قَدَّمَ الَّذِي قَبْلَ الْمَوَاعِيدِ، وَحَيْدَهُ» (عب ١١: ١٧).

١٥- إن معنى هذه الكلمات هو كالاتي: لا يمكن القول أن له ابنين شرعيين، وأن الواحد احتفي ويمكنه أن ينتظر أن يكون أباً لهذه الكثرة (من النسل) عن طريق الآخر.

لكن لم يكن له إلا ابن وحيد وهو وحده الذي به تختص كلمات الموعد، لكنه فضل (بل اختار) قتله (طاعة لأمر الله له). وهكذا كما لم يعق إيمانه في الوعد بميلاده، لا جسده الممات ولا عقم زوجته، هكذا الآن لا يزعرعه الموت!

١٦- قارن هذه الأحداث بما معك الآن ترى جنبك، وترى صغر نفوس الذين عثروا، وتدرك بوضوح سبب العثرة ليس هو في أن يسلم الإنسان نفسه بين يدي العناية الإلهية غير المدركة، بل في السعي بدون توقف لمعرفة الطريقة التي بها تتم مقاصد الله والتشدد في طلب (معرفة) سبب الأحداث والاجتهاد في فحص كل حدث.

١٧- لو كان إبراهيم قد تصرف هكذا لكان قد صار عاجزاً بالنسبة إلى الإيمان، لكنه لم يتصرف بحجة. لهذا السبب قد تألق وكل الأشياء التي أعلنت له قد تحققت. إنه لم يعثر لا بشيخوخة ولا بالأمر الذي أعطي له بعد ذلك.

إنه لم يفكر في أن الأمر كان معوقاً للوعد، ولا في أن المحرقة ستلاشى الضمان المعطى، ولم يسقط في اليأس فيما يختص بالوعد مع أن اسحق قد جاء لتحقيق هذه الأعمال (المختصة بوعد الله). لا تقل لي أن الله لم يسمح بأن يتم أمره ولا بأن تتخضب بالدماء يد البار، بل انظر إلى أن إبراهيم لم يعرف شيئاً من كل هذا، ولا أنه استعاد ابنه حياً ولا أنه عاد به هكذا إلى المنزل، لكن كل انتباهه كان موجهاً لذبحه.

١٨- لهذا السبب قد دُعي اسمه مرتين من السماء. لأن الله لم يقل له «يا إبراهيم» مرة واحدة فقط، بل قال:

«إِبْرَاهِيمُ إِبْرَاهِيمُ». فَقَالَ: «هَتَنَدًا» (تك ٢٢: ١١). فتراجع بتكرار هذه الكلمة وأوقف إرادته الممتدة نحو المحرقة بمقدار انهماكه التام في (تنفيذ) الأمر المعطى له. وها أنت ترى كيف أنه أتمه بالنية. هل عثر؟ إطلاقاً وما السبب؟

السبب أنه لم يفحص مقاصد الله.

١٩- قل لي وماذا عن يوسف؟ ألم يتعرض يوسف أيضاً لأمر مماثل؟ فقد أخذ وعداً عظيماً، لكن الأحداث جاءت مناقضة لما قيل له. فقد رأى في حلم أن إخوته يسجدون له وعبرت له النجوم والسنابل عن ذلك في حلمين، لكن جاءت الأحداث مناقضة لما قد رآه (في الأحلام).

٢٠- فقد قامت ضده حرب قاسية في بيت أبيه وحل إخوته رُبط الأخوة وكسروا قوانين الطبيعة ونظامها، وصاروا بعد أحلامه معاندين وأعداء له بأكثر وحشية من الذئاب. وكما فتتك الحيوانات الموحشة (بفريستها)، هكذا نصبوا له فخاخاً كل يوم (ليفترسوه).

٢١- وكان مصدر هذه الحرب الحسد المملوء جنوناً والحقد الظالم والغضب المشتعل، وهكذا كانت تفوح منهم رائحة قتل كل يوم، وكانت الغيرة توجج هذا الأتون وتلهب النار. وإذ فشلوا في إيقاع الأذى به طالما أنه يعيش في البيت ويقيم مع والديه، فهاجموا المكانة التي كان يتمتع بها، فدبروا له سمعة رديئة ووضعوا عليه اتهام كرية مريدين هكذا تدمير الحب الذي كان يكتنه له أبوه فيقع بأكثر سهولة في فخاخهم.

٢٢- ثم جذبوه بعيداً عن عيني والده، وإذ هو آت إليهم بالطعام يطمن عليهم قابلوه (بغدر) ولم يبهجهم سبب زيارته لهم ولم يحرموا حجلاً أمام الطعام الذي أحضره أخوهم، بل سبوا سيوفهم واستعدوا لقتله وصاروا كلهم قتلة أحيهم (بالنية)، ولم يمكنهم أبداً أن يتهموا من هم مزعمين أن يقتلوه بالهام خفيف أو ثقيل (يستوجب حكمهم عليه). لكنه بفضلهم صار مكللاً وانتشر اسمه من قبل الذين حسدوه وقتلوه وافتروا عليه.

٢٣- أما بالنسبة له فهو لم يجد عن رفقتهم بل في موقف حرج كهذا أظهر مشاعر أخوية حسنة. وهم الذين استعدوا لإخفائه - على الأقل بالنسبة لهم - وخصبوا أيديهم بالدماء وأتموا قتلهم له (بالنية).

٢٤- لكن غنية هي طرق حكمة الله وإمكاناتها وسط المواقف المعقدة، إذ خلصته من الحب وأنقذته من رحلة الموت وانتزعت من الأيدي القاتلة. في الواقع أن أحد إخوته نصح بعدم قتله، لكن الله هو الذي ألهمه بهذه الفكرة وهو الذي منع ذبحه. ولكن هذا لم يكن نهاية الأحوال بل قد استؤنفت من جديد. وحيث أنهم قد منعوا عن قتله، فإن قلبهم كان لا يزال يغلي وغضبهم كان في قمته ورموج سخطهم كان شديداً فأعطوا لهذا الغضب شكلاً آخر.

٢٥- فعروه من ملايسه وربطوه ورموه في الحب ثم جلس هؤلاء الرجال القساة القلب - كالحوانات المفترسة - يأكلون من الطعام الذي أحضره لهم. هو كان في الحب في رعدة عظيمة، أما هم فكانوا يأكلون ويمرحون!. ولم يكتفوا بهذا الجنون، إنما إذ رأوا البرابرة الذين تركوا بلادهم ذاهبين إلى مصر، أخرجوا أخاهم وباعوه. وبهذا دبوا له موتاً بطيئاً قاسياً مملوءاً آلاماً.

٢٦- تخيل معي مشاعر يوسف الذي كان صغير السن، وقد تربى في بيت أبيه في حرية كاملة بلا خيرة في حياة العبودية ولا في المعاناة التي تترتب عليها، يصير فجأة عبداً بدلاً من أن يكون حراً، وغريباً بدلاً من أن يكون صاحب المكان محتملاً أسوأ معاملة يمكن أن تحدث لأسير حرب. ولا يقف الأمر عند احتماله آلام العبودية، لكن يصاحبها آلام فراق أبيه وأخيه الأصغر بنيامين وكل أقاربه مع العري والتغرب بلا منزل ولا مدينة، مُسلماً للعبودية في أيدٍ بربرية!

٢٧- ألم يكن يكفيه هذا ليمتلئ اضطراباً: تراكم المحن، المفاجأة في الموقف، حيبة الأمل، قسوة التجربة التي هي من صنع أيدي إخوته المحبوبين لديه والذين لم يسئ إليهم في شيء، بل على العكس أحسن إليهم. لكن لا شيء من هذا جعله يضطرب مع أنه تكبد مثل هذه المعاملة (الشرسة)، ومضى مع التجار منتقلاً من عبودية إلى أخرى.

٢٨- صار يوسف عبداً، وأقام في بلد بربرية مع أنه عبراني حر المولد وحرته كانت مضاعفة، إذ كانت له حرية الجسد وحرية النفس. إنه لم يترعج أبداً، ولم يُعثر على الإطلاق لما حدث له، لأنه كان يتذكر دائماً الأحلام التي أعلنت له عكس الواقع الذي يجابهه الآن، ولم يتساءل بطريقة فضولية: ما الذي يحدث؟

٢٩- أما الذئاب والحيوانات المتوحشة، قتلة أحييم، فبعد أن أتموا هذه الجرائم (في حق أحييم) عاشوا في حياة هنيئة في بيت أبيهم. أما يوسف المختار لكي يملك عليهم صار عبداً وسجيناً يباع ويُشترى في أيدي الغرباء، وعانى آلاماً مريعة، ليس فقط بعدم تسلطه عليهم، بل كونه صار عبداً لهم وذاق تجارب مناقضة للوعد تماماً، لأنه ليس فقط لم يحصل على المملكة، بل حُرم أيضاً من وطنه وفقد حرته ورؤية أهله.

٣٠- لم تتوقف حروبه عند هذا الحد، بل انفتحت له هوة أعمق تفوح منها رائحة موت وقتل، موت بغيض وقتل ممتلي خزي. فقد نظرت إليه زوجة فوطيفار نظرات أئيمة. لقد أسرها جمال الشاب واستعبدها منظره المنير، فكانت هي بالتالي تدبر له خديعة وفخاخاً.

٣١- بعد أن نصبت له كل شباك خلاعتها من كل جانب، كانت كل يوم تتربص بالشباب لتقتنصه في شباكها وتسقطه في الزنا وتسلمه إلى موت أيدي. وكانت كل يوم تخرج لتبحث عن فريستها وقد وخرقها الشهوة وحبها الأثيم. رأته ذات مرة بمفرده وسعت إلى اجتذابه بالقوة إلى فراش الخطية وإرغامه على الالتصاق بامرأة غريبة وحاولت تدنيس فضيلته.

-د لا أظن أن رؤيتهم منظر أبيهم وما أصابه من حزن شديد على موت يوسف جعلهم يعيشون حياة هائلة.



٣٢- لكن مع هذا لم يعاني البار أي ضرر ولا أسسر الشهوة ولا حمية الشباب، ولا من شر سيدته التي نصبت له الفخاخ وهاجمته بغير حياء، والهيجان المغروس في الشباب وكل ما يرغب في الاقتراب إلى هذه المرأة من منظرها وغواياتها، لكنه خرج من هذه الظروف جميعها يفيض هدوءاً كالنسر الباسط جناحيه يرتفع بما عالياً تاركاً ملابسه في الأيدي المتجاسرة. ترك ملابسه وصار عرياناً ولم يكن يكتسي إلا بفضيلته البهية والتي كانت أكثر لمعناً حتى من الرداء الأرجواني.

٣٣- ثم عادت فأشهرت سيفها ثانية وتمياً للموت (لابتلاعه). ارتفعت الأمواج عالية، واشتعلت شهوة المرأة المجنونة بنار تفوق أتون بابل، والتهمت رغبتها وثار غضبها وقسوتها المخيفة في وحشية بالغة، وأرادت قتله. فأسرعت للسيف واشتهدت له موت الخزي وتاقت إلى إهلاك بطل الفضيلة وبطل الصبر والجهاد.

٣٤- اندفعت نحو زوجها واشتكت دون أن تروي له حقيقة الأمر، وإنما مثلت أمامه مسرحية وشاياتها، وأقنعت بما أرادت. اتهمت غريمها بحجة أنها «أهينت» وطالبت بالانتقام. وكدليل على ما قالته، قدمت بين يديها النجسة ثياب الشاب البرئ.

٣٥- لم يسمع القاضي الفاسد للمتهم، ولا ترك له مجالاً للدفاع، بل أدان ذلك الذي لم ير حتى المحكمة كما لو كان قد ضُبط متلبساً بفعلة، واقتنع بإثمه كأن هذا الشاب قد اعتاد الزنا، فرماه في السجن وسلّمه إلى القيود. وذلك الذي كان مكللاً بأكاليل الفضيلة هذه، صار منذ الآن في السجن مع المجرمين ولصوص المقابر والقتلة، ومع الذين يمكنهم أن يقتلوه.

٣٦- لكن لا شيء من كل هذا جعل يوسف يضطرب.

أحد الذين أساءوا إلى الملك أطلق سراحه (ساقى فرعون)، لكن ظل هو محبوساً لوقت طويل محتملاً أسوأ العقوبات لأجل أشياء ستجعله جديراً بالأكاليل والشهرة. وفي هذا كله لم يضطرب يوسف ولا تعثر. لم يقل في نفسه: ما هذا؟ ماذا ذلك؟ أنا الذي كان ينبغي لي أن أملك على إخوتي، لكنني لم أحرم من هذه الكرامة فقط، بل وحرمت أيضاً من وطني وأهلي وحريري وهدوثي، والذين كان ينبغي أن يسجدوا أمامي قد أبعدوني (من طريقهم).

٦- لا يبدو لي أن الأمر هو هكذا لأن فوطيفار يحكم كونه رجل شرطه يستطيع أن يبيت في القضية ويفحصها جيداً، ولو لم يكن مقتنعاً براءة يوسف لكان قتله لاسيما وأنه مجرد عبد وغريب في البلد. ولكنه اضطر لسجنه مراعاة لسمعة زوجته، ولكنه عوض هذا بجعل أوضاع يوسف في السجن مريحة قدر المستطاع وهذا ما عرى يوسف بعض الشيء!

٣٧- ثم بعد محاولة قتلي باعوني وصرت عبداً للبرابرة يتبادلني سيد بعد آخر، ولم تتوقف بلاباي عند هذا، بل من كل جانب أجد هوة سحيقة وحجارة أتعثر بها. فبعد الفخ الذي نصبه لي لإخوتي، كانت محاولة القتل والعبودية الأولى والثانية والتصق بي الموت من جديد، ثم صادفني افتراء أكثر بشاعة من الأول، ثم مؤامرة، هجوم، محكمة فاسدة، اتهام مملوء بالخزي يجتذب لي الموت.

٣٨- ودون أن يتاح لي الدفاع عن نفسي أُقيت بمنتهى البساطة في السجن، وهأنذا أحياء وراء القضبان مع الزناة والقتلة ومن اجترأوا على اقرار أسوأ من هذه الجرائم. إن ساقى الملك قد أنتزع من وراء القضبان، أما أنا فلا أستطيع حتى أن أنعم مثله ببعض الهدوء. بالنسبة له قد تحقق حلمه بحسب تفسيري له، أما أنا فإنني أحياء في آلام لا تطاق.

٣٩- هل هذا هو ما أظهرته أحلامي؟ هل هذا هو عدد النجوم الكثيرة؟ هل هذه هي حزم السنابل؟ ما الذي فيها من أمور معلنة؟ ما الذي فيها من وعود؟ هل تُدعت وضلل بي؟ كيف يمكن لإخوتي أن يسجدوا لي وأنا عبد سجين وإنسان مقيد ويظن أنني زاني وتعرضت لأسوأ المخاطر ومطروود بعيداً عنهم. كل هذا عبر وتلاشى!

٤٠- لم يقل يوسف هذا ولا فكر فيه، إنما انتظر النهاية وعرف غنى طرق الله وإمكانات حكمته الفياضة، وليس فقط لم يعثر بل أيضاً هُلك وقبل برضى كل ما حل به.

٤١- قل لي ألم يتعرض داود لأكثر البلايا إبلاماً بعد أن مُسح ملكاً ونال السلطان على شعب العبرانيين بإرادة الله وبعد أن انتصر على البرابرة (جليات وجيشه الفلسطيني) وكسرههم؟ ألم يشن عليه شاول حرباً وصار هدفاً لمكائده، بل وصارت حياته في خطر، وأُرسل إلى الأعداء الألداء، وطُرد إلى البرية تائهاً ومنبوذاً بغير مأوى ولا مسكن ومنقياً؟

٤٢- ولماذا نقول المزيد من هذا؟ ألم يُطرد في النهاية من وطنه تماماً وعاش عند الأعداء البرابرة واحتمل حياة العبودية المؤلمة وكان ينقصه القوت الضروري. وكل هذا عاناه داود بعد مجيء صموئيل النبي وبعد مسحه بالزيت وبعد الوعد بالملك ونواله القضيب والتاج، وبعد اختيار الله له.

٤٣- لكن مع هذا لم يعثر داود بل ولم يقل: لماذا هذا؟ وأنا الملك الذي سأنعم بمثل هذا السلطان، أفلا أقدر حتى أن أعيش كإنسان عادي؟ هأنذا تائه منفي بلا مدينة ولا مأوى، مطرود في بلد بربرية، ليس لي حتى القوت الضروري ووسط أسوأ المحن، وأرى الخطر يحدق بي كل يوم! أين الوعد بالملك؟ أين الإعلان بنوالي السلطة؟!

لم يقل داود هذا ولم يفكر أبداً في شيء من هذا ولا تعثر بسبب الأحداث وإنما انتظر هو أيضاً تحقيق الوعد.

٤٤ - نستطيع أن نذكر كثيرين آخرين حلّت بهم صعاب مماثلة ولم يتأثروا بل تمسكوا بكلمة الله، حتى وإن كانت الأحداث تأتي بما يناقض الوعد. ولكن بصيرهم العجيب صنعوا لأنفسهم أكاليل مضيئة.

وأنت يا عزيزي انتظر النهاية، فبال تأكيد ستتحقق لك المواعيد في هذا الدهر والدهر الآتي. تقبل عناية الله غير المدركة تحت كل الظروف ولا تقل: كيف تصادفني كل هذه الحسائر؟ ولا تسعى لفحص طرق أعمال الله العجيبة.

## الفصل الحادي عشر

تحقيق الوعود لا يتم في الحال وانظر كيف أن القديسين

لم يعثروا رغم أن الأحداث كانت مناقضة للوعود.

١- لم يبحث الأبرار كيف وبأي وسيلة تتحقق مواعيد الله. حتى عندما كانوا يرون كل الأمور قد تعقدت للغاية بحسب الفكر البشري، لم يتأثروا ولا اضطربوا بل احتملوا (كل هذا) في سمو. ودليلهم على المستقبل المُبشّر هو قدرة ذلك الذي وعد. لهذا لم يياسوا أمام تكذيب الأحداث للوعود.

٢- لقد عرفوا غنى طرق الله وحكمته، فإنه حتى إن بدا الموقف مناقضاً للوعد، لكن الله قادر أن يحوله لحال أفضل، وأن ما وعد به الله يمكن أن يتحقق في سهولة بالغة.

وأنت أيضاً يا عزيزي، إن زادت تجاربك في هذه الحياة مجدّد الله، وإن صارت الأحداث نحو الأسوأ أشكره أيضاً ولا تعثر، عالماً أن عناية الله لا نهائية، ولا يمكن تفسيرها، وأنها حتماً تبلغ إلى الهدف المناسب سواء في الحياة الحاضرة أو في الحياة الآتية.

٣- نقول لمن فقد صبره وهو يسمعنا نتحدث عن الحياة العتيدة مشتتياً في خوفه أن يرى تحقيق الأمور، أن الحياة الحقّة والحقائق الدائمة تنتظرنا في المستقبل. فإن الحياة هنا وأمورها مجرد طريق، أما وطننا فهو في الدهر الآتي. أمور هذه الحياة تشبه زهور الربيع (التي تذبل سريعاً)، أما أمور الحياة الأخرى فتشبه صحوراً لا تززع. هناك أكابيل ومكافآت أبدية، هناك ثمن الجهاد والكفاح، أما هنا فالعقوبات والتأديبات الشاقة محفوظة لمن تصرفوا بطريقة خاطئة.

٤- لكن ماذا ستقول عن الذين لم يكفوا عن التعثر؟ إنك لا تحدثني عن الذين وسامهم لامع بل تذكر لي من كانوا لا بسين قناع التقوى والآن هزمهم الخطأ!

ألم تر الذهب يُصفى، والرصاص يُكشف عنه؟ والتبن يفصل عن القمح، والذئاب عن الخراف، والمرائين عن الذين يعيشون في تقوى حقيقية؟ عندما ترى العثرات التي يسببها هؤلاء، فكر في الكرامة التي يتمتع بها أولئك (الذين صمدوا في وجه العثرات).

٧- هذا اعتراض بتخيله ذهبي القم موجه إليه وسرد عليه في السطور التالية.

٥- لقد سقط البعض لكن كثيرون لا يزالون قائمين، مهينين أنفسهم لأعظم جعالة إذ أنهم لم يتزعزعوا، لا بقوة الأعداء ولا بقسوة الأحداث.

أما الذين تعثروا فليتأملوا في حالهم. إن الثلاثة فتية قد أُبعدوا في الواقع عن الهيكل الكهنة والمذبح وكل فروض الناموس، وهم متروكين في بلد بربرية ومع ذلك ظلوا متمسكين بوصايا الناموس بدقة. وأيضاً دانيال وغيره كثيرون. لقد سُبي البعض منهم ولم يخطئوا، بينما الذين بقوا في ديارهم وتمتعوا بخيرات بلادهم ضلوا واستحقوا أن يدانوا (ويُعاقبوا).

## الفصل الثاني عشر

### لماذا سمح الله بوجود الأشرار والشياطين في العالم؟

١- إن كنت تطلب (معرفة) لماذا تمت هذه الأشياء، وإن لم تخضع لمقاصد الله العميقة وغير المفحوصة، وإن حصرت هدفك في مجرد التساؤلات المملوءة فضولاً، فإنك ستظل تتساءل في أشياء أخرى كثيرة مثل: لماذا ترك الله الباب مفتوحاً للهرطقات؟ لماذا أوجد إبليس والشياطين والأشرار الذين يُسقطون كثيرين؟ بل والأسوأ من هذا لماذا ينبغي أن يأتي ضد المسيح وتكون له القدرة على التضليل حتى إن أمكن أن يضل المختارين كقول السيد المسيح؟

٢- يجدر بنا ألا نبحث في هذا كله، وإنما نسلّم لحكمة الله غير المدركة. فالإنسان الشجاع والثابت بقوة في الله، حتى لو هاجت ضده الأمواج واجتاحته العواصف، ليس فقط لن يعاني أية خسارة، بل أيضاً سيصير أكثر قوة.

أما الشخص الضعيف المتخاذل فإنه حتى وإن لم يوجد ما يضايقه فإنه يسقط كثيراً. وإن أردت معرفة السبب (لترك الله للأشرار) فاسمع ما هو في مقدورنا أن نقوله. هناك دواعي أخرى كثيرة عند الله الذي يدبر بوسائل مختلفة وعجيبة كل ما يختص بنا، وما نعلمه من هذه الدواعي سنعرضه فيما يلي:

٣- إن الله يسمح بهذه العثرات لكي لا تقل مكافأة الأبرار، وهذا ما أكده الله في حديثه مع أيوب قائلاً: «لَعَلَّكَ تَنَاقُضُ حُكْمِي. تَسْتَدْنِي لَتَتَبَرَّرَ أَنْتَ!» (أي ٤٠: ٨).

٤- ويقول بولس الرسول أيضاً: «لَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَكُمْ بَدْعٌ أَيْضاً لِيَكُونَ الْمُرَكَّبُونَ ظَاهِرِينَ بَيْنَكُمْ» (١ كو ١١: ١٩).

وأنت عندما تسمع الرسول يقول: «إنه لا بد أن تكون بدع» فلا تظن أن الرسول يقول هذا على سبيل الأمر أو أنه يقيم قانوناً. كلا، إنما هو يتنبأ بما سيحدث ويشرح مقدماً أن الناس اليقظين سيجنون من هذا منفعة عظيمة. لأن فضيلة الذين لن يضلوا ستبدو أكثر إشراقاً.

٥- علاوة على ذلك، فإن الأشرار قد تركوا ليتصرفوا بحريتهم لسبب آخر وهو أنه إن لم يظهر ضعفهم لا يمكن حصاد تجديدهم. هكذا خلص بولس واللص والزانية والعشار وكثيرون

غيرهم. ولو كانوا حُطِفُوا من الأرض قبل توبتهم ما كان أحد منهم قد خلص.

أما بالنسبة لمحيي ضد المسيح، فإن بولس الرسول يعطي سبباً آخرًا. ما هو؟

لكي يقطع على اليهود بكل الطرق كل حجة. فما هو عذرهم برفض المسيح وقد كان الأجدد بهم أن يؤمنوا به؟ ويقول أيضاً: «لَكِنِّي يُدَانُ جَمِيعُ الَّذِينَ لَمْ يُصَدِّقُوا الْحَقَّ، بَلْ سُرُّوا بِالْإِثْمِ» (٢تس ٢: ١٢). وهكذا قالوا أنهم لم يؤمنوا بالمسيح لأنه قال عن نفسه أنه الله.

٦- «لَسْنَا نُرْجِمُكَ لِأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لِأَجْلِ تَجْدِيفٍ، فَإِنَّكَ وَأَنْتِ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهًا» (يو ١٠: ٣٣). مع أنهم سمعوه مراراً يشير إلى أبيه، وأثبت لهم بطرق كثيرة أنه جاء حسب إرادة الآب.

ماذا سيقولون حينما يأتي ضد المسيح الذي يجعل نفسه الهاً ولا يتكلم عن الآب ويصنع العكس تماماً؟ هذا ما ويختمهم عليه السيد المسيح وأعلنه مقدماً بقوله: «أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ» (يو ٥: ٤٣). من أجل هذا سمح بالعثرات.

٧- إن تكلمت عن الذين قد تعثروا، فأنا سأظهر لك الذين حصدوا من العثرة مجدداً وسأقول لك نفس الشيء: لا يجوز أن يتسبب إهمال البعض وكسلهم في حرمان الساهرين من الجعالة والإكليل بالنسبة للمتيقظين. فلو لم تُتَحَ لهم هذه الفرص من الحروب لأُسئِلَ إليهم!

ليس فقط الذين لم يعثروا هم الذين يستطيعون أن يدينوا من عثر، بل الذين من هذا الفعل (المعثر) قد نالوا مزيد من المجد والقوة (وهم بشر تحت الآلام مثلهم).

## الفصل الثالث عشر

### لا شيء يسبب ضرراً وعثرة لمن هم يقظون.

١- أخبرني: هل كان لإبراهيم كاهن ومصلحون ومعلمون وأناس ينصحونه؟ لم يكن له في ذلك الوقت كتاب مكتوب ولا ناموس ولا أنبياء ولا شيء من هذا القبيل، بل كان يسبح في بحر غير صالح للملاحة ويسير في طريق وعر. فأبوه وأقاربه كانوا عبدة أصنام، ومع هذا فإن الظروف جميعها لم تؤذيه بل زينت فضيلته.

٢- لذلك بعد زمن طويل - بعد مجيء الأنبياء والناموس وتعليم السيد المسيح الرائع بالأعمال والمعجزات - تبينت فضائله التي سبق فترين بها من محبة حارة عملية واحتقار للغنى وحنانه الأبوي تجاه أهله (لوط وأسرته). لقد سحق الترف تحت قدميه وترك حياة المتعة الفانية وعاش في تقشف يفوق نسلك رهبان عصرنا الذين بلغوا قمم الجبال (ليعيشوا فيها).

٣- لأنه لم يكن له منزل، إنما كانت ظلال أوراق الشجر سقفاً لهذا البار ومأوى له. وإذا كان غريباً امتلاً غيرة نحو إضافة الغرباء. اهتم هذا الغريب في البلاد الغريبة باستضافة القادمين إليه ظهرأ وبخدمتهم، ولم يقيم بخدمتهم وحده بل أشرك معه امرأته في هذا العمل الصالح.

٤- ألم يُسد صنيعاً إلى ابن أخيه مع أن لوط لم يكن قد تصرف معه حسناً بل أساء إليه وهذا بعد أن كانت له (بصفته الأكبر عمراً ومركزاً) إمكانية اختيار الأرض الفضلى (انظر تك ١٣: ١٧) ثم ألم يعرض حياته لخطر محقق من أجله؟

وعندما أمره الرب أن يترك البيت (الأبوي) ليذهب إلى أرض غريبة أطاع في الحال وترك وطنه وأصدقاءه وكل أهل بيته، مرتبطاً بما لا يعرفه في يقين عظيم من أجل مواعيد الله. وكان هذا دليلاً على إيمان مملوء خضوعاً.

٥- ثم حدثت مجاعة فتغرب ثانية بغير انفعال أو اضطراب، مُظهرأ نفس الطاعة ونفس القوة ونفس الصبر ضد الألم. ثم رحل إلى مصر، ومع أنه كان مطيعاً لله الذي وضع عليه مثل هذه التجارب، فقد أخذت منه امرأته، ورآها أهينت بسبب مجيئه إلى مصر، وتحمل الآماً (نفسية) أسوأ من الموت، إذ ضرب في أعز ما لديه (وهو شرف امرأته المحبوبة). قل لي أي شر أكثر



إيلاًماً — بعد أعمال فاضلة كثيرة — أن يرى المرأة التي قد ارتبطت به بناموس الزواج قد سُلبت بتروة إنسان بربري، واقتيدت بمهانة إلى قصر الملك؟

٦- ولو أن هذا الأمر لم يتحقق (أي لم يمس فرعون زوجته) لكنه على الأقل اضطير له واحتمل بكل نبل. فلا البلايا جعلته يتعثر ولا الغنى جعله ينتفخ، بل في مختلف الظروف احتفظ بنفس سوية. وعندما تم وعده بابن، ألم تكن هناك ألف عقبة يقترحها العقل؟ فإذا قد أذعن لكل ما يقوله الله، وإذا قد أسكت كل اضطراب يحدث (في ذهنه)، فإن إيمانه تلاًلاً.

٧- لكن عندما تلقى أمراً من الله بذبح ابنه، ألم يأخذه سريعاً كمن يقوده إلى عش الزوجية، كمن يسلم العروس إلى عريسها؟ متخطياً حدود الطبيعة و متحرراً من الطبيعة البشرية، فقدم ذبيحة جديدة وعجيبة، مجاهداً بمفرده بغير معونة من زوجته، أو خادم له، أو أحد أتباعه.

٨- في الواقع إن إبراهيم كان يعلم جيداً خطورة الأمر وعظم العقبة وشدة القتال. لهذا السبب واجه النضال وحده، وركض وحارب واشتهر اسمه.

أي كاهن علّمه هذا؟ أو أي معلم أو نبي؟ لا أحد، لكن لأنه كانت له نفس مهياة حسناً فقد أتاحت له أن يواجه هذا كله (برباطة جأش).

٩- هل وجد نوح كاهناً أو معلماً أو مرشداً؟ هذا الذي انفرد وحده سائراً في طريق مناقض للأرض كلها التي فسدت بالشر، صانعاً الفضيلة فخلص نفسه ومع آخرين من الغرق الذي كان يهددهم؟! بأي طريق صار باراً؟ بأي طرق أدرك الكمال؟ أي كاهن وأي معلم كان له؟ لا أحد يستطيع أن يقول أنه كان له كاهن أو معلم.

١٠- وبالرغم من أن حاماً أبنة كانت فضيلة ابيه العملية هي معلمه الدائم، وكان يمكنه إذ رأى الحوادث بعينه أن يستخلص دروساً من كارثة الطوفان ونهاية الشر، لكنه كان شريراً تجاه والده فاستهزأ بعريه وعرضه للاستهزاء العام. انظر كيف يلزم أن تكون للإنسان في كل الظروف نفس مهياة حسناً؟

١١- قل لي وماذا عن أيوب؟ أي أنبياء أمكنه أن يسمع لهم؟ أو أي تعاليم أستطاع أن ينتفع بها؟ لا يوجد.

ومع أنه لم يجد عوناً من هذا القبيل، إلا أنه أعطى مثلاً لفضيلة تامة وضرورية جداً، لأنه، ولو أنه كان يملك خيرات (وفيرة)، فهذه كانت ليتشارك بها مع من كانوا في احتياج. وليس فقط ماله، بل وبذل صحته ذاتها.

١٢- فهو في الواقع استقبل الغرباء في بيته، وكان منزله يخصهم أكثر مما يخصه. وقد حمى بقواه الطبيعية - الذين ظلموه. وبكلامه الرقيق وفطنته سد أفواه السفهاء وكان كملك في كل تصرفاته.

١٣- تأمل، إن السيد المسيح يقول: «طوبى للمساكين بالروح» (مت ٥: ٣)، وأيوب نفسه حققها عملياً فقال: «إِنْ كُنْتُ رَفَضْتُ حَقَّ عَبْدِي وَأَمْتِي فِي دَعْوَاهُمَا عَلَيَّ، فَمَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ حِينَ يَقُومُ اللَّهُ؟ وَإِذَا افْتَقَدَ فِيمَاذَا أُجِيبُهُ؟ أَوْلَيْسَ صَانِعِي فِي الْبَطْنِ صَانِعُهُ، وَقَدْ صَوَّرْنَا وَاحِدًا فِي الرَّحْمِ؟» (أي ٣١: ١٣-١٥). والسيد المسيح يقول أيضاً: «طوبى للودعاء، لأنهم يبرثون الأرض» (مت ٥: ٥). من بلغ وداعة ذلك الذي قال عنه عبده بسبب جبههم له «مَنْ يَأْتِي بِأَحَدٍ لَمْ يَشْبَعْ مِنْ طَعَامِهِ؟» (أي ٣١: ٣١)<sup>١</sup>

١٤- «طوبى للحزائي (البكاكين)، لأنهم يتعزّون.» (مت ٥: ٤) وقد اختبر أيوب هذه التعزية الداخلية. أنصت ماذا يقول: «إِنْ كُنْتُ قَدْ كَتَمْتُ كَالنَّاسِ ذُنْبِي لِإِخْفَاءِ إِثْمِي فِي حِضْنِي. إِذْ رَهَيْتُ جُمْهُورًا غَفِيرًا، وَرَوَعْتَنِي إِهَانَةُ الْعَشَائِرِ، فَكَفَفْتُ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنَ الْبَابِ!» (أي ٣٣: ٣١، ٣٤) i وإنسان له مثل هذه الدوافع، من الواضح أنه بكى بغزارة على خطئه.

١٥- «طوبى للجياع والعطاش إلى البر» (مت ٥: ٦).

انظر بأي كمال حقق هذا: «هَشَمْتُ أَضْرَاسَ الظَّالِمِ، وَمِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ خَطَفْتُ الْفَرِيسَةَ» (أي ٢٩: ١٧)، «لَيْسَتْ الْبِرُّ فَكْسَانِي. كَجَبَّةٍ وَعِمَامَةٍ كَانِ عَدْلِي» (أي ٢٩: ١٤). «طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون.» (مت ٥: ٧) وهو لم يكن فقط رحوماً بفضل ثروته في كسائه لمن كانوا عرايا، وإطعامه لمن كانوا جياعاً، وإقامته حق الأرملة وإحاطته لليتيم بكل اهتمام، وتطيفه لكل عاهات الطبيعة بكلماته الصالحة، بل لركة نفسه تجاه الأمم.

١٦- قال أيوب: «أَلَمْ أَبْكْ لِمَنْ عَسَرَ يَوْمُهُ؟ أَلَمْ تَكْتِثْ نَفْسِي عَلَى الْمُسْكِينِ؟» (أي ٣٠: ٢٥) كما لو كان أباً للكل: أمام بلايا كل واحد منهم؛ فإنه كان يوزع (خيرات) للبعض، ويكي على البعض، ويخفف عن من كانوا في الضيق، سواء بكلماته أو بأعماله أو بعطفه. إنه كان ميناءً متاحاً للجميع.

٨- جاءت هذه الآية في النص هكذا: «من يعطينا أن نشبع من لحمه؟» ولكني أثرت تسجيل النص البيروتي هما ولدا لزم التنويه.

١٧- «طُوبَى لِلْأَنْبِيَاءِ الْقَلْبِ، لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ.» (مت ٥: ٨) وهذا قد تحقق له بطريقة فائقة، وسمع الله وهو يشهد له بقوله: «لأنه ليس مثله في الأرض! رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر.» (أي ٢: ٣).

١٨- «طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لِأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ.» (مت ٥: ١٠) وهذه كانت أيضاً مصدرأ فائضاً للحروب والمكافات، لأن الذي كان يطارده ليس البشر بل الشيطان. رئيس الأشرار كان يهاجمه إذ قد نفذ فيه كل مكائده وانقض عليه وطرده من بيته ووطنه، ودفعه ليجلس على الرماد ونزع منه كل غناه ومقتنياته وأولاده بل وصحته، وسلمه إلى جوع شديد جداً. بعد هذا فإن الشيطان هيج عليه بعض أصدقائه الذين اندفعوا عليه عمداً وفتحوا جروح نفسه من جديد.

١٩- «طُوبَى لَكُمْ إِذَا عَيَّرُوكُمْ وَطَرَدُوكُمْ وَقَالُوا عَلَيْكُمْ كُلَّ كَلِمَةٍ شَرِيرَةٍ، مِنْ أَجْلِ الْكَاذِبِينَ. افْرَحُوا وَتَهَلَّلُوا، لِأَنَّ أَجْرَكُمْ عَظِيمٌ فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُمْ هَكَذَا طَرَدُوا الْأَنْبِيَاءَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ» (مت ٥: ١١-١٢). في الواقع إن أيوب تلذذ جداً بهذه الطوبى، إذ أن الذين أحاطوا به آنذاك افتسروا عليه بقولهم أن عقوبته كانت أقل مما تستوجبها أخطاؤه، وابتلوه باستجواب مطول وأحاديث مليئة بالأكاذيب وهم ملفقة.

٢٠- لكن عندما أوشك أصدقاؤه على الهلاك، فإنه خلصهم من الغضب الإلهي دون أن يحفظ لهم أي ضغينة من كل ما قالوه ضده. وهكذا أتم وصية «أحبوا أعداءكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم،» (مت ٥: ٤٤) وهو في الواقع قد أحبهم وصلى لأجلهم وحول عنهم الغضب الإلهي ومحا خطيئتهم، مع أنه لم يسمع نبياً ولا كارزاً ولا كاهناً ولا معلماً ولا أوصاه أحد بالفضيلة.

٢١- هل ترى كيف كانت زوجته نبيلة، كيف اعتمدت على نفسها في ممارسة الفضيلة، حتى وإن لم تجد من يحيطها بالعطف، ولم يكن أحد من أسلافه صالحين، بل كانوا راسخين في شر عظيم، إذ يقول بولس الرسول عن جده عيسو: «الذي لأجل أكلة واحدة باع بكورثته. الذي لأجل أكلة واحدة باع بكورثته.» (عب ١٢: ١٦).

## الفصل الرابع عشر

### هل عثرت النفوس بسبب الاضطهادات في العصر الرسولي؟

وجدت عثرات كثيرة في أيام الرسل وتأثر بها كثير من الناس وهلكوا، كما تعرض الكارزون للاضطهادات والموت.

١- قل لي: ماذا حدث في أيام الرسل؟ ألم تحدث لهم بلايا وعثرات واضطهادات مشابهة؟  
اسمع ما يقوله بولس: «أَنْتِ تَعْلَمُ هَذَا أَنَّ جَمِيعَ الَّذِينَ فِي أَسِيَّا ارْتَدُّوا عَنِّي، الَّذِينَ مِنْهُمْ فِيجَلِسُ وَهَرْمُوجَانِسُ» (٢ تي ١: ١٥).

ألم تكن السجنون مقرأ للكارزين؟ ألم ينقلوا بالقيود؟ ألم يحتملوا أسوأ البلايا من الأقارب والغرباء؟ ألم تدخل بعد انتقالمهم الذئاب الخاطفة واحتلت أماكنهم في الحظيرة؟ ألم يشر بولس الرسول إلى هذا عندما استدعى الأفسسيين إلى ميليتس؟

٢-٢ «لَأَنْتِي أَعْلَمُ هَذَا: أَنَّهُ بَعْدَ ذَهَابِي سَيَدْخُلُ بَيْنَكُمْ ذَنَابٌ خَاطِفَةٌ لَا تُشْفِقُ عَلَى الرَّعِيَّةِ. وَمِنْكُمْ أَنْتُمْ سَيَقُومُ رِجَالٌ يَتَكَلَّمُونَ بِأُمُورٍ مُلْتَوِيَةٍ لِيَجْتَذِبُوا التَّلَامِيذَ وَرَاءَهُمْ» (أع ٢٠: ٢٩-٣٠).  
ألم يسبب له اسكندر النحاس شروراً كثيرة (٢ تي ٤: ١٥)؟ إذ هاجمه من كل الجوانب وحاربه، وتبعه بالضيقات وأثار ضده حرباً عنيفة، حتى أن بولس الرسول حذر تلميذه منه قائلاً: «فَاحْتَفِظْ مِنْهُ أَنْتِ أَيْضاً لِأَنَّهُ قَاوِمٌ أَقْوَالِنَا جِدًّا.» (٢ تي ٤: ١٥).

٣- ألم يفسد إيمان أهل غلاطية بواسطة بعض الإخوة الكذبة؟ في بدء الخدمة ظهر إستفانوس، هذا الإنسان الذي فاضت بلاغته كالأنهار وأبكم كثيرين مبكناً الألسن اليهودية الأثمة، ولم يقدر أحد على مقاومته، ونصب تذكاراً لامعاً وأحرز انتصاراً هيباً.

٤- كان هو الإنسان النبيل المملوء حكمة. استفادت منه الكنيسة كثيراً رغم قصر مدة خدمته. عند كرازته ألقوا القبض عليه مع آخرين وحوكم ورجم كمجذوف.

وماذا عن يعقوب الرسول؟ ألم يقتله هيرودس ليرضي اليهود، وكان ذلك في البداية؟ فرحل عمود الحياة هذا وقاعدة الحق.

٥- كم عثر آنذاك أمام هذه الأحداث؟ لكن الثابتين (حرفياً الواقفين) ظلوا ثابتين، وسيظلوا هكذا. اسمع ما يقوله بولس وهو يكتب إلى أهل فيليبي: «ثُمَّ أُرِيدُ أَنْ تَعْلَمُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ أَنَّ مُسُورِي قَدْ آلَتْ أَكْثَرَ إِلَى تَقَدُّمِ الإِنْجِيلِ، حَتَّى إِنْ وَتَّقِي صَارَتْ ظَاهِرَةً فِي الْمَسِيحِ فِي كُلِّ دَارِ الْوِلَايَةِ، وَفِي بَاقِي الأَمَاكِنِ أَجْمَعِ. وَأَكْثَرَ الإِخْوَةَ، وَهُمْ وَاثِقُونَ فِي الرَّبِّ بِوَثْقِي، يَجْتَرِبُونَ أَكْثَرَ عَلَى التَّكَلُّمِ بِالْكَلِمَةِ بِلَا خَوْفٍ» (في ١٢: ١-١٤).

٦- أترى هذه الشجاعة؟ أنتظر هذه الثقة؟ أترى القوة الروحية وطريقة التفكير المسيحي (السليم)؟ لقد رأوا معلمهم في السجن مقيداً، مجر على استداد فمه للكراسة، مضروباً، يعانى أسوأ العذابات، وليس فقط أنهم لم يعثروا ويتأثروا، بل بالأكثر صاروا أكثر حماساً، وأعطتهم آلام معلمهم مزيداً من الاندفاع نحو الحروب (الروحية).

٧- لست أنكر أن البعض هلكوا. فمن الطبيعي أن ينهار الكثيرون أمام هذه الأحداث، لكن ما سبق أن قلته، ولن أتوقف عن تكراره وسأقوله الآن أيضاً، إنه من العدل أن يرجع هؤلاء المعثرين ضعفهم إلى أنفسهم ذاكما، وليس إلى طبيعة الأحداث. لقد ترك لنا السيد المسيح هذا الميراث المشترك إذ قال لنا: «فِي الْعَالَمِ سَيَكُونُ لَكُمْ ضَيْقٌ» (يو ١٦: ٣٣)؛ «وَتَسْأَلُونَ أَمَامَ وُلَاةٍ وَمُلُوكٍ» (مت ١٠: ١٨)، «وَتَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يَقْدِمُ خِدْمَةَ اللَّهِ» (يو ١٦: ٢)، فباطلاً تعترض على وجود أناس متعثرين، لأن الضيق مستمر على الدوام.

٨- ولماذا أذكر تجارب الرسل؟! كم من أناس تعثروا أمام صليب ربنا وصاروا أكثر شراً وسفاهة؟ في مرورهم أمامه كانوا يستهزئون به ويقولون: «يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَنِيهِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، خَلِّصْ نَفْسَكَ! إِنْ كُنْتَ ابْنُ اللَّهِ فَانزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ!». وكذلك رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ أَيْضاً وَهُمْ يَسْتَهْزِئُونَ مَعَ الْكُتْبَةِ وَالشُّبُوحِ قَالُوا: خَلِّصْ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! إِنْ كَانَ هُوَ مَلِكٌ إِسْرَائِيلَ فَلْيَنْزِلِ الْآنَ عَنِ الصَّلِيبِ فَتُؤْمِنَ بِهِ!» (مت ٢٧: ٣٩-٤٢).

٩- مع هذا لا يمكن أن يكون الصليب عذراً لهم، لأن اللص سيدين كل الناس الذين من هذا النوع، لأنه ألقى نظرة على المصلوب وليس أنه لم يعثر وحسب، بل وجد فيه علة للبحث عن الحكمة الحقة. وعندما تحطى البشرى ارتفع بجناح الإيمان وتأمل في الآيات.

١٠- لم يعثر اللص بالرغم من رؤيته للسيد المسيح مصلوباً مهاناً، يشرب الخل ويصق عليه، يستهزئ به كل الشعب وحكموا عليه بالموت. فهو إذ رأى الصليب (والمصلوب) والمسامير في يديه والشعب الفاسد يستهزئ به، سار حسب الطريق المستقيم قائلاً:

«اذْكُرْنِي يَا رَبُّ مَتَى جِئْتُ فِي مَلَكُوتِكَ» (لوقا ٢٣: ٤٢).

١١- لقد أبكم الشائمين معترفاً بخطاياهم! وتأمل القيامة دون أن يرى الموتى وهم يقومون ولا رأى البرص يطهرون أو العرج يمشون أو البحر مبكماً أمام المسيح، ولا الشياطين يُطردون ولا الأرغفة تتكاثر وبقية المعجزات التي رآها اليهود ومع هذا صلّبوا المسيح.

١٢- إذ رآه اللص اعترف به إلهاً وتذكر ملكوته وتأمل الأبدية، أما اليهود على العكس فقد رأوه يجري المعجزات، وكان لهم امتياز سماع تعاليمه بكلماته وأعماله، وليس فقط أنهم لم ينتفعوا به، بل انحدروا إلى أعماق الجحيم لهلاكهم برفعهم إياه على الصليب.

١٣- ها أنت ترى أن الجهال وغير المكترئين لم يجنوا أية منفعة مما هو مفيد، لكن من هم مهياؤون حسناً ويقظون، فقد جنوا منفعة عظيمة من الأحداث التي أثمرت غيرهم. يمكن تأكيد هذا بالنسبة ليهودا وبالنسبة لأيوب.

في الواقع إن يهوذا ما كان ليخلص ولا حتى بواسطة المسيح الذي هدى الأرض إلى الطريق المستقيم، وأيوب لم يصبه أي ضرر من جانب الشيطان مع أنه (الشيطان) سبب هلاك كثيرين.

١٤- أحدهم (أيوب) عانى بلايا كثيرة واستحق إكليلاً، والآخر (يهودا) الذي رأى معجزات بل عملها بنفسه، إذ أقام أمواتاً وطرد شياطيناً، لأنه هو أيضاً نال نفس السلطان، وقد سمع أموراً كثيرة عن الملكوت وجهنم وشارك في العشاء السري إذ كان حاضراً في الوليمة التي تُلهم مخافة تقوية، وقد أنعم عليه بنفس الإحسان ونال نفس الاهتمام كبطرس ويعقوب ويوحنا وكثيرين غيرهم.

١٥- لأنه غير الاهتمام والتلطف الذي كان زائداً فقد أسند إليه صندوق الفقراء. هذا الإنسان أصيب بعد ذلك بالضلال، وبعد أن قبل الشيطان بالطمع، صار خائناً بحسب نواياه (السيئة)، واقترب أعظم جريمة إذ باع هذا الدم (الزكي) بثلاثين من الفضة وسلم معلمه بقبلة غاشة.

١٦- يا ترى كم تظن عدد الذين أعتروا أمام الخيانة التي أتت من مثل هذا التلميذ؟ وساكن الصحراء (يوحنا المعمدان) الذي هو ثمرة امرأة عاقرة، ابن زكريا، والذي أعتبر جديراً لعماد هذه الرأس المقدسة، وأن يكون بشير سيده، عندما كان في السجن وذبح وكان قتله ثمناً لرقيقة خليعة، كم من الناس أعتروا آنذاك؟

١٧- ولماذا أقول آنذاك؟ كم من أناس - بعدما مضى كل هذا الوقت الطويل - عند سماعهم لهذه القصة يعثرون الآن أيضاً؟ ولماذا الكلام عن يوحنا (المعمدان) وعن السجن، وعن هذا القتل، لماذا أتوقف عند العبيد بينما يليق الاندفاع نحو السيد؟

## الفصل الخامس عشر

الجهلاء عثروا حتى بأعظم الخيرات،

أقصد الصليب الذي به تم خلاص العالم.

١- ألم يكن صليب المسيح عثرة لكثيرين وهو الذي أمخض العالم (من نوم الغفلة) وبدد الضلال وحول الأرض إلى سماء، وكسر قوى الموت، وجعل الجحيم عقيماً، ودمر قلعة إبليس، وسد أفواه الشياطين، وجعل البشر ملائكة، وحرب المذابح وهدم الهياكل (الوثنية)، وغرس هذا الدين الجديد والعجيب، وكان هو الصانع لإحسانات كثيرة سببت احتراماً مهيباً وعظيماً، وكان صعب اقتناؤها؟

٢- ألم يبشّر به بولس ويشهد لكونه عثرة قائلاً: «وَلَكِنَّا نَحْنُ نَكْرِرُ بِالْمَسِيحِ فَصَلُوباً: لِلْيَهُودِ عَثْرَةً، وَلِلْيُونَانِيِّينَ جَهَالَةً!» (١ كور: ١: ٢٣).

أخبرني: هل كان ينبغي ألا يوجد الصليب، ولا نقدم هذه الذبيحة لأنها كانت عثرة لمن هلكوا آنذاك وبعد ذلك وفي كل عصر؟

٣- من سيكون جاهلاً وغيباً جداً ليقول هذا؟ وأيضاً لا يلزم أن نضع في الاعتبار من قد عثروا ولو أنهم كثيرون، بل من قد خلصوا ومن تم اقتيادهم إلى الطريق المستقيم، ومن قد انتفعوا بمثل هذه الحكمة. ألم يلزم القول: ما الذي يهيم فيمن قد عثروا؟ لأنه لا ينبغي أن يُعزى الخطأ إلا إليهم. والأمر هو هكذا الآن أيضاً.

٤- في الواقع إن العثرة لا تأتي من طبيعة الصليب، بل من حماقة الذين عثروا. لهذا السبب أضاف بولس قوله: «وَأَمَّا لِلْمَدْعُونِ: يَهُوداً وَيُونَانِيِّينَ فَبِالْمَسِيحِ قُوَّةُ اللَّهِ وَحِكْمَةُ اللَّهِ» (١ كور: ١: ٢٤). لأن الشمس تؤذي عيون المرضى، فماذا؟ ألا ينبغي أن توجد الشمس؟ العسل يبدو مرّاً لمن هم مرضى، فهل ينبغي أن يختفي من الحياة اليومية؟ ألم يكن الرسل أنفسهم رائحة موت وتلد الموت للبعض، وللبعض الآخر رائحة حياة تلد حياة؟ هل كان يلزم بسبب المائتين ألا ينتفع الأحياء من مثل هذا العون العظيم؟



٥- كم هو عدد الذين تبعوا من مجيء المسيح نفسه، وهو خلاصنا ومصدر الخيرات والحياة وأعاجيب لا حصر لها؟ كم بسببه تجردوا من العذر والغفران؟ ألم تسمع ما قاله المسيح بخصوص اليهود: «لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ جِئْتُ وَكَلَّمْتُهُمْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ، وَأَمَّا الْآنَ فَلَيْسَ لَهُمْ عُذْرٌ فِي خَطِيئَتِهِمْ» (يو ١٥: ٢٢) ع.

٦- فماذا؟ هل كان يلزم ألا يأتي المسيح بسبب من لم ينتفعوا من هذا المجيء؟ من يجروء على قول هذا؟ لا أحد على الإطلاق يقول هذا، حتى ولو كان في منتهى الحماسة.

وأيضاً قل لي: كم عدد الناس الذين صار لهم الكتاب المقدس سبب عثرة؟ كم من هرطقات وجدت علتها منه؟ هل كان ينبغي أن يتلاشى الكتاب بسبب من قد عثروا؟ أم كان يلزم ألا يُعطي منذ البدء؟ بالتأكيد كان يلزم أن يُعطي لمن سينتفعوا منه. أما الذين قد عثروا، فلن أتوقف عن أن أسوق نفس الكلام، وهو أنه ليعزوا (ينسبوا) العثرات إلى أنفسهم. أما الذين انتفعوا بأعظم الفوائد كانوا سيعانون من خسارة عظيمة لو أنه بسبب جهل وإهمال الآخرين كانوا قد حُرموا من نوال ما كان مفيداً لهم.

لا تتكلموا عن الذين هلكوا، لأنه كما قلت في نص سابق، مَنْ لم يؤذ نفسه، لا يمكن أن يعاني ضرراً من جانب الآخرين، حتى لو كانت حياته في خطر.

## الفصل السادس عشر

### لا أحد يؤذي من لم يؤذي نفسه.

١- قل لي: لماذا تضرر هابيل وهو الذي قُتل بيد أخيه وعاني من موت مبكر وعنيف؟ ألم يجني بالأحرى منفعةً، إذ قد توج بأكليل لامع جداً؟ لماذا تضرر يعقوب وهو الذي عانى من اضطهادات كثيرة من جانب أخيه وصار منفيًا هارباً بلا وطن وعبداً وخارت قواه من الجوع؟

٢- لماذا تضرر يوسف الذي كان أيضاً بلا وطن وبلا بيت، سجيناً مقيداً بالسلاسل، وعبداً ومتعرضاً لأسوأ المخاطر، وكان بين أهله كالغريب وعانى من وشايات كثيرة؟ لماذا تضرر موسى وهو الذي رُجم (بالبنية) ألف مرة من جمع عظيم جداً، الذين أحسن إليهم نصبوا له الفخاخ؟ لماذا تضرر الأنبياء، وهم الذين عانوا من بلايا كثيرة من جانب اليهود؟ لماذا تضرر أيوب وهو الذي هاجمه الشيطان بمكائد كثيرة؟

٣- وبماذا تضرر الثلاثة فتية؟ وبماذا تضرر دانيال وهو الذي تعرض لأخطار عظيمة من جهة حياته، ومن جهة حرته؟ لماذا تضرر إيليا وهو الذي عاش في فقر مدقع، مطروداً، هارباً، ساكناً الصحاري، منفيًا وفاراً بلا انقطاع؟ لماذا تضرر داود وهو الذي عانى من معاملات سيئة كثيرة من جانب شاول، وفيما بعد من جانب ابنه (أبشالوم)؟ ألم يتألاً أكثر لاحتتماله أسوأ البلايا عن الأوقات التي فيها نعم بالهدوء؟

٤- لماذا تضرر يوحنا المعمدان بسبب قطع رأسه؟ وبماذا تضرر الرسل إذ قُطعت رؤوس البعض منهم، والبعض الآخر أسلموا العذابات مختلفة؟ لماذا تضرر الشهداء وهم الذين تمزعت نفوسهم من البلايا الكثيرة التي أصابتهم؟ ألم يلمعوا أكثر عندما تم تهديدهم، وعندما نُصبت لهم الفخاخ، وعندما عانوا أسوأ العذابات، فصمدوا لها بنبل؟

## الفصل السابع عشر

### الصليب دليل على عظم اهتمام وصلاح وحب الله.

١ - عندما نحتفل جميعاً برينا لكل الأسباب الأخرى، ألا نحتفل بالأكثر بمجدين إياه لأنه قد أصابنا باندھاش أمام الصليب، وأمام هذا الموت الممتلئ بالحزني واللعنة؟ أليس القديس بولس في كل مناسبة يُظهر لنا موت المسيح كأعظم دليل على حبه لنا؟ ماذا كان حال البشر الذين مات لأجلهم؟ إذ قد توقف بولس الرسول عن الحديث عن السماء والأرض والبحر وكل الأشياء الأخرى التي صنعها المسيح لأجل فائدتنا (منفعتنا) وإراحتنا، يرجع في كل حين إلى الصليب قائلاً:

٢ - «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَبِينُ مَحَبَّتَهُ لَنَا لِأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدَ خُطَاةٍ مَاتَ الْمَسِيحُ لِأَجْلِنَا.» (رو ٥: ٨) i  
ومن هذه الحقيقة يقترح لنا أعظم الآمال بقوله لنا: «لأنه إن كنا ونحن أعداء قد صولحنا مع الله بموت ابنه، فبالأولى كثيراً ونحن مُصالحون نخلص بحياته.» (رو ٥: ١٠).

٣ - ثم أليس بذلك يفخر ويزداد اشتياقاً ويطفر ويطير من الفرح إذ يكتب لأهل غلاطية قائلاً: «فحاشا لي أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح،» (غلا ٦: ١٤). لماذا تدهش إن كان بسبب هذا يطفر بولس ويطير من الفرح، إذ أن المسيح نفسه الذي احتمل هذه الآلام يدعوها مجداً له (عندما يقول): «أيها الأب، قد أتت الساعة. مجد ابنك ليُمددك ابنك أيضاً» (يو ١٧: ١).

٤ - والتلميذ (يوحنا) الذي كتب هذا قال:

«لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد.» (يو ٧: ٣٩). وهو هنا يدعو الصليب مجداً، لكن عندما أراد إظهار محبة المسيح عن ماذا تكلم؟ هل تكلم عن معجزاته وعجائبه؟ هل تكلم عن بعض الآيات؟ لا شيء من هذا على الإطلاق، بل ذكر الصليب بقوله: «لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو ٣: ١٦).

٥- وهكذا أيضاً يقول بولس:

«الَّذِي لَمْ يُشْفَقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَدَلَهُ لِأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ، كَيْفَ لَا يَهْبِنَا أَيْضاً مَعَهُ كُلُّ شَيْءٍ؟!»  
(رو٨: ٣٢)، وعندما يدعوننا إلى التواضع، فمن هناك يستحنا عليه بقوله:

«فَإِنْ كَانَ وَعَظَّمَا فِي الْمَسِيحِ. إِنْ كَانَتْ تَسْلِيَةً مَا لِلْمَحَبَّةِ. إِنْ كَانَتْ شَرِكَةً مَا فِي الرُّوحِ. إِنْ كَانَتْ أَحْشَاءَ وَرَأْفَةً، فَتَمَّمُوا فَرْحِي حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْرًا وَاحِدًا، وَلَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ شَيْئًا وَاحِدًا، لَا شَيْئًا بِتَحَزُّبٍ أَوْ بِعُجْبٍ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضَكُمْ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ». (في ٢: ١-٣).

٦- ثم يضيف في هيئة نصيحة قوله: «فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً: الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ، لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، أَخَذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كِإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ، مَوْتِ الصَّلِيبِ». (في ٢: ٥-٨).

٧- وحينما يدعو إلى المحبة يضع هذا المثال أيضاً في الوسط قائلاً:  
«وَاسْلُكُوا فِي الْمَحَبَّةِ كَمَا أَحْبَبْنَا الْمَسِيحُ أَيْضاً وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لِأَجْلِنَا، قُرْبَانًا وَذَبِيحَةً لِلَّهِ رَاحَةً طَيِّبَةً» (أف ٥: ٢).

ومن أجل تحقيق الترابط الجميل بين الرجال ونساءهم قال هكذا:  
«أَيُّهَا الرِّجَالُ، أَحْبِبُوا نِسَاءَكُمْ كَمَا أَحَبَّ الْمَسِيحُ أَيْضاً الْكَنِيسَةَ وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لِأَجْلِهَا»،  
(أف ٥: ٢٥).

٨- والمسيح نفسه ليُظهر كم أن الصليب كان شغله الشاغل، وكم أنه كان يقدر الألم، عندما قال له بطرس - أول الرسل وقائد خورسهم - عن جهل: «حَاشَاكَ يَا رَبُّ! لَا يَكُونُ لَكَ هَذَا!» (مت ١٦: ٢٢)، فاسمع ما دعاه به الرب قائلاً له: «أَذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ. أَنْتَ مَعْتَرِئٌ لِي» (مت ١٦: ٢٣)، وهنا أظهر المسيح بالتوبيخ الشديد والعنيف لبطرس عظم الأهمية التي كان يعلقها على الصليب.

٩- إنه أراد أن تتم القيامة في خفية عن الكل وسراً، وترك إلى الدهور التالية مسئولية برهنتها. لكن الصليب كان في وسط المدينة في قلب العيد، ووسط شعب اليهود، إذ عُقدت له محاكمتان، واحدة من اليهود والأخرى من الرومان. وأثناء العيد كان كل العالم (اليهودي) مجتمعاً، وفي وضوح النهار، وأمام الأرض كلها تكبد هذا العذاب.

١٠- وحيث أن الذين كانوا حاضرين هم فقط الذين استطاعوا رؤية ما حدث، فإنه أعطى أمراً للشمس أن تعلن هذا في كل أنحاء الأرض باحتجاجها، ولم يخشَ الرب أن يصنع هذا. وبالتأكيد ما بادرت بقوله هو أن هذا كان عثرة لكثيرين، ولكن لا ينبغي أن نفكر فيمن عثروا، بل فيمن خلصوا ومن أتموا أعمال الفضيلة.

١١- لماذا تدهش إن كان الصليب في الحياة الحاضرة بهياً جداً، حتى أن المسيح دعاه مجداً وبولس افتخر به؟ في ذلك اليوم الرهيب والمرعب عندما يأتي مُظهراً مجده، عندما يأتي في مجد أبيه، عندما يقيم المنبر الرهيب، عندما يظهر الجنس البشري كله (أمامه)، عندما تغلي أنهار النار، عندما تنزل معه جموع الملائكة والقوات العلوية، عندما توجد ربوات المكافات، عندما يلمع البعض كالشمس والبعض الآخر كالنجوم.<sup>٩</sup>

١٢- عندما تقف جماعات الشهداء وخوارس الرسل وفرق الأنبياء، عندما يقاد جمع البشر الشجعان علانية. آنذاك - نعم آنذاك - في هذا المنظر الذي يبهر الأبصار، في هذا المشهد الذي علي الملأ. ها هوذا يحمل صليبه الذي يشع أنواراً براقية. والمسيح يقول: «وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضَيْقِ تِلْكَ الْأَيَّامِ تُظْلَمُ الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ السَّمَاءِ، وَقَوَاتِ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعَزَعُ. ٣٠ وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلَامَةُ ابْنِ الْإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قِبَائِلِ الْأَرْضِ، وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَابٍ سَمَاءٍ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ.» (مت ٢٤: ٢٩، ٣٠).

١٣- أيها الألم الذي تاللاً، أيها الصليب الذي تألق!

الشمس تظلم والنجوم تتساقط كأوراق الشجر، أما الصليب فيلمع ببهاء أكثر منهم كلهم ويحتل السماء كلها. أترى كيف يتهلل به الرب؟ أتنظر كيف يكشف عن أن الصليب هو مجده عندما يظهره في ذلك اليوم في مثل هذا البهاء للأرض كلها؟

٩- نظراً للتقسيم الموجود في النص المترجم منه، جعل بعض المقاطع تبدو غير مسيحة لكن يمكن تلافي هذا بمواصلة القراءة دون النظر إلى التقسيم المعطى.

## الفصل الثامن عشر

### هذه الأحداث كانت مكسباً غير قليل للكنيسة.

وأنت عندما ترى أن البعض قد عثر مما حدث، تفكر أولاً أن عثرتهم لم تأتي مما حدث، بل من ضعفنا ذاته. والذين لم يَحْتَرُوا هذه المشاعر يظهرن ضعفنا جيداً. ثم فكر في أن كثيرين نالوا بهاءً عظيماً ممجدين الله وشساكرين إياه بجرارة رغم هذه الأحداث. لا تنظر إلى مَنْ زلوا، بل إلى من هم صامدون وغير مترعزين، وظلوا ثابتين، والذين بهذه الطريقة صاروا أكثر قوة. لا تنظر لمن قد انزعجوا واضطربوا، بل لمن يبحدون عبر العواصف، والذين هم أكثر عدداً من الذين خاروا.

وحتى لو كان عدد الخائرين أكثر، فإن رجل واحد يتمم إرادة الله أفضل جداً من ألف يقترفون الشر.

## الفصل التاسع عشر

### شهداء كثيرون عاشوا وماتوا في هذا الرجاء.

١- تفكر في كل من نالوا إكليل الشهادة. البعض منهم جُلدوا والبعض الآخر تم اقتيادهم إلى السجن وآخرون قيدوا بسلاسل كفعل علي شر.

البعض طُردوا من وطنهم، والبعض الآخر فقدوا ثروتهم، والبعض هاجر إلى بلاد ما وراء الحدود، والبعض جازوا هذا بالخبرة (عملياً)، والبعض الآخر كانوا يتوقعونه.

٢- في الواقع عندما تم إشهار السيف من غمده وعندما سُحذ، وكان كل يوم يتم تهديدهم، والميتات مع كل أنواع العقوبات والعذابات يتم إعدادها، فإنهم لم يثنوا ولم يسلموا، بل ثبتوا على الصخرة غير متزعزعين، ومفضلين احتمال كل شدة على المشاركة في شر من قد تجاسروا على اقتراف مثل هذه الأفعال. ولم يكونوا فقط من الرجال، بل كانوا أيضاً من النساء.

٣- في الواقع إن النساء خاضوا هذه الحرب وتصرفوا بشجاعة أكثر من الرجال، وليس النساء فقط، بل أيضاً الفتيان والفتيات وكل الأطفال الصغار. قل لي: هل هو شيء هين أن يكون للكنيسة مثل هذا الجمع العظيم من الشهداء؟ لأن كل هؤلاء كانوا شهداء. فليس الذين تم جرهم إلى المحاكم وتلقوا أمراً بالذبح ولم يرضخوا له واحتملوا ما احتملوه من آلام، هم فقط الذين يمكن أن يكونوا شهداء، بل أيضاً الذين قبلوا (ولو بالنية) أن يعانون أي عذاب في أي مجال كان من أجل إرضاء الله. وإن أردت أن تفحص الأمر بعناية، فالآخرون أحق من الأولين.

٤- لأنه ليس الأمر سيان: فعندما يهددونك بالقتل وإهدار دمك، فالقبول بالتألم مهما يكون، أجدر من القتل واحتمال نفس العذاب لأجل منفعة لا تساوي هذا. فليس فقط الذين قد دُبحوا نالوا إكليل الشهادة، بل أيضاً الذين كانوا مستعدين له والذين كانوا جاهزين لاحتمال هذه العقوبة.

لقد قلت سابقاً: الذي قد دُبح لأسباب أقل أهمية هو أيضاً شهيد كامل، وسأجتهد لتوضيح هذا بصوت بولس.

٥- بعد أن بدأ بولس الرسول في تعداد من تلاًأ بين القدماء، إذ ذكر أولاً هايل ثم وصل إلى نوح وإلى إبراهيم واسحق ويعقوب، فإن بولس الطوباوي استمر قائلاً: «لِلذِّكَ نَحْنُ أَيْضاً إِذْ لَنَا سَحَابَةٌ مِنَ الشُّهُودِ مِقْدَارُ هَذِهِ مُحِيطَةٌ بِنَا» (عب ١٢: ١).

٦- لكن لم يُقتل أحد منهم إلا اثنين أو ثلاثة: هايل ويوحنا المعمدان، أما كل الآخرين فقد ماتوا ميتة طبيعية. ويوحنا نفسه قُتل، ليس لكونه أُجبر على تقديم ذبيحة فرفض، ولا لأنه سُحب أمام صنم (ليسجد له فرفض)، بل لمجرد كلمة قالها: «لَا يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ» (مت ١٤: ٤) سُجن وكان ضحية لهذه العقوبة.

٧- إن كان الذي نطق بحكم ضد زواج غير شرعي بأقل مما كان يستطيعه، لأنه لم يقوم الفعل الشرير المقترف، بل فضحه فقط، ولم تكن له قوة على وضع نهاية له، فإن كان الذي قال مجرد كلمة، وتوقف عمله عند هذا الحد، لأن رأسه كانت قد قُطعت يعتبر شهيداً، بل أول الشهداء، فالذين أصابتهم جروح كثيرة؛ الذين أعدوا أنفسهم للجهاد - ليس ضد هيرودس وحسب - بل ضد سلاطين الأرض كلها والذين لم يقاوموا زواجاً غير شرعي فقط بل كانوا متكفلين بالدفاع عن شرائع آبائنا وقوانين الكنيسة أمام من يحتقرونها، الذين كلامهم وتصرفاتهم أظهرت جسارتهم الواثقة، متعرضين يوماً للموت، رجالاً وأطفالاً ونساء، ألا يكون من العدل وضعهم في مصاف الشهداء؟

٨- كما أن إبراهيم، ولو أنه لم يذبح ابنه بالحقيقة، فإنه ذبحه بالنية وسمع من السماء هذه الكلمة: «فَلَمَّ تُمْسِكْ ابْنَكَ وَحَيْدِكَ عَنِّي» (تك ٢٢: ١٢)، كذلك - في كل أمر - عندما تكون النية مُلهمة بالفضيلة، تنال المكافأة بالتمام.

٩- إن كان إبراهيم ذكر بمزيد من الشرف لأنه لم يشفق على ابنه، فالذين لم يشفقوا على أنفسهم، تحيل أي أجر سينالونه وهم يخوضون مثل هذا الجهاد، ليس لمدة يوم أو يومين، بل على مدى الحياة كلها، وهم مُلاحقين بإهانات وإساءات وتهديدات وتشهيرات، وهذا ليس بالأمر الزهيد. لهذا السبب فإن بولس الرسول يعجاب شديد يشهد في هذه الحالة فيقول: «مَنْ جِهَةً مَشْهُورِينَ (أَي يَتِمُّ التَّشْهِيرُ بِهِمْ) بِتَعْيِيرَاتٍ وَضِيْقَاتٍ، وَمِنْ جِهَةٍ صَّائِرِينَ شُرَكَاءَ الَّذِينَ تَصَرَّفَ فِيهِمْ هَكَذَا» (عب ١٠: ٣٣).



١٠ - ماذا يقال أيضاً عن الذين ماتوا وهم يعانون مثل هذه التجارب، وهم يعدوا رجالاً ونساءً للجهاد؟ لهذا فإن بولس الرسول معه حق في الإعجاب بهم. كثيرون بذلوا ثرواتهم لكي يجد المسجونين والمنفيين بعض الراحة في بليتهم العظمى. وعندما سُلبت أموالهم قبلوا هذه التجربة بفرح بحسب كلمة الرسول. البعض منهم طردوا من وطنهم، والبعض الآخر طردوا من الحياة (أي ماتوا).

١١ - لذلك عند رؤية مثل هذا الغنى والمكسب والغنيمة وقد أُقيدت إلى الكنيسة، ومثل هذه الكنوز تتراكم، والذين كانوا ضعفاء في السابق صاروا الآن أكثر حرارة من النار، والذين لم يكونوا يغادرون المسارح رحلوا إلى الصحراء جاعلين الوديان والجبال بمثابة كنائس.

وبينما لا يوجد من يقود القطيع (لنفي البطريك أو الأسقف) فإن الخراف قامت بعمل الرعاة. جنود الرئيس - بفضل جسارتهم الواثقة وشجاعتهم، بكل الغيرة والحماس والتحفظ الذي يليق - قاموا بأداء المهمات المنوطة بالرئيس. ألا تُصاب بالدهشة وتمتلي بالإعجاب لأعمال الفضيلة التي سببتها الأحداث؟

١٢ - لأنه ليس الذين يعيشون حياة مستقيمة بل كثيرون من الذين يقضون أوقاتهم في المسارح وميادين سباق الخيل، الذين تطهروا بحمية نار شديدة، قد تخلوا تماماً عن طيشهم واندفعوا - إن جاز القول - عبر السيوف مُظهرين أمام الولاة جسارة وثقة، محترقين البلايا ومستهزئين بالتهديدات، مُظهرين كيف تكون قوة الفضيلة، وكيف يمكن لمن سيوصله الموت حتماً لأعلى السموات بتوبته وندامته ( فيكون جديراً بالإقتداء به).

١٣ - عندما ترى كثيراً من المكافآت، ومثل هذه الأكاليل المصفورة، ومثل هذا التعليم منتشرًا، أخبرني من أين لك أن تُعثر؟

لقد قلت ولن أكف عن القول إن هلاك من يعثرون شيء يُعزى إليهم (لضعفهم)! إن حديثنا موجه بكل طريقة لإظهار هذا.

وسأذكر أيضاً مزية أخرى. كم عدد الناس الذين يرتدون قناع التقوى، وكم عدد الذين لهم وداعة كاذبة، وكم عدد الذين كانوا يعتبرون عظماء ولم يكونوا (في حقيقة الأمر) كذلك، وسقطوا تماماً في الظروف الحالية؟ إن حيل خداعهم قد انهارت، وظهروا على حقيقتهم وسقط ما كان يزيّفونه ويتراءون به.

١٤- هذه ليست مزية هينة بل امتياز مُعتبر جداً لمن اهتموا لما فيه فائدتهم من جهة تمييز من يرتدون جلود الحملان ولا يختلطوا بالذئاب التي تحفت هكذا وسط الحملان الحقيقية. إن الوضع الحالي هو أنون يتيح التمييز بين قطع النقود، فتلك التي من البرونز تذيب الرصاص وتحرق القش وتجعل المواد الثمينة تظهر أكثر قدراً. وهذا ما بينه بولس الرسول عندما يقول: «لأنه لا بد أن يكون بينكم بدع أيضاً ليكون المزكون ظاهرين بينكم.» (١ كو ١١: ١٩).

## الفصل العشرون

### حتى في عصر الرسل حدثت أشياء متعبة جداً

١- ليت لا شئ من كل هذا يعترك، لا الكاهن الذي في رداءته يتلف عملياً القطيع بشراسة أكثر من شراسة الذئب، ولا من أحد الذين يمارسون السلطة (الكنسية) عندما يرهن على قسوته الشديدة. وتذكر أنه حدثت أشياء متعبة أكثر من هذه في عصر الرسل.

٢- دعا بولس الرسول من يمارس السلطة (باستبداد) على أنه هو سر الإثم (٢تس ٢: ٧)، إذ قد أعطى نفسه للشر تحت كل أشكاله، وقد خسف بكل الناس بشره. لكنه لم يؤذ أبداً، لا الكنيسة ولا الناس الممتلئين نبلاً، بل جعلهم يتلألون ببهاء أقوى. إن كهنة اليهود كانوا من الرداءة والضلال الذي جعل السيد المسيح يوصي بالحدز منهم وعدم الإقتداء بهم.

٣- يقول المخلص:

« عَلَى كُرْسِيِّ مُوسَى جَلَسَ الْكُتْبَةُ وَالْفَرَّيْسِيُّونَ، فَكُلُّ مَا قَالُوا لَكُمْ أَنْ تَحْفَظُوهُ فَاحْفَظُوهُ وَأَفْعَلُوهُ، وَلَكِنْ حَسَبَ أَعْمَالِهِمْ لَا تَعْمَلُوا، لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ وَلَا يَفْعَلُونَ. » (مت ٢٣: ٢-٣).

وبالتأكيد، أي شيء يمكن أن يكون أكثر سوءاً من الكهنة الذين مثالمهم يسبب هلاك كل من يقتدي بهم؟ لكن ولو أن المسئولين كانوا آنذاك على هذا المستوى فالذين قد تآلثوا والذين تكلموا لم يعانون أية خسارة بل حصلوا على مزيد من المجد. فلا ينبغي أن نستشيط غضباً أمام الأحداث.

في الواقع إن التجارب الآتية من كل جانب، من القرييين ومن الغرباء لها ثقل النير على من كانوا متيقظين.<sup>١١</sup>

٤- لهذا السبب فإن بولس الرسول إذ رأى السحب المنذرة بالأخطار التي تكدرت على تلاميذه، وخشى أن يضطربوا منها قال في رسالته:

١١- يحدد ذهبي الفم هذه الصيغة العامة كل المصاعب والعداوات التي جازها هو نفسه من حانب الأساقفة في رحلة نفيه.

«فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْأَسْقُفُ بِلَا لَوْمٍ، يَغْلُ امْرَأَةً وَاحِدَةً، صَاحِبِيًّا، عَاقِلًا، مُحْتَشِمًا، مُضِيْفًا لِلغُرَبَاءِ، صَالِحًا لِلتَّعْلِيمِ، غَيْرَ مُدْمِنٍ الخَمْرِ، وَلَا ضَرَّابٍ، وَلَا طَامِعٍ بِالرَّيْحِ الْقَبِيحِ، بَلْ حَلِيمًا، غَيْرَ مُخَاصِمٍ، وَلَا مُعَجَّبٍ لِلْمَالِ» (١ تس ٣: ٢-٣). وما يريد أن يقوله هو كالاتي:

٥- هذه هي حياتنا، فإن الصحبة الطبيعية للحياة الرسولية هي معاناة البلايا الكثيرة. إنه قال «إننا موضوعون لهذا» ماذا يقصد بهذه العبارة؟

كما أن البضائع (عادة) تؤخذ (للسوق) لتباع، كذلك الحياة الرسولية جعلت للمعاناة من الإساءات ولسوء المعاملة، وألا يكون لها وقت أبداً تلتقط فيه أنفاسها أو تستريح.

٦- والذين هم متيقظون، ليس فقط لن يعانون من الأحداث (المؤسفة) أي خسارة و فقط، بل أيضاً سيسستفيدوا منها (ربحاً وإكليباً). لهذا السبب، بعد أن علم بولس الرسول أن أهل تسالونيكي قد تصرفوا بنبل، عبّر عن إعجابه بهم. (وأيضاً أبدى إعجابه) بأخرين غيرهم فقال؛ إن بعد قيوده وسلاسله تجاسروا على إعلان الكلمة بغير خوف (في ١: ٤٤).

٧- أخبرني ما الذي حدث في عصر موسى في وسط أمة بربرية؟ ألم يسمح الله للسحرة بأن يظهروا أعاجيبهم؟ ألم يذكر بولس الرسول هذا التاريخ؟

«وَكَمَا قَاوَمَ يَنْيَسُ وَيَمْبَرِيْسُ مُوسَى، كَذَلِكَ هُوَآءَ أَيْضًا يُقَاوِمُونَ الْحَقَّ.» (٢ تي ٣: ٨). وهكذا لم تقل العثرات أبداً، ولا قل البشر الذين استحقوا الإكليل. تفكر في هذا، وليس في هذه (أي في العثرة) فقط، بل أيضاً في المكسب الذي ينتج عنها.

٨- تفكر أيضاً أنه توجد أسباب أخرى سرية لهذه الأحداث، لأنه لا يمكن أن نعلم كل شيء.

تفكر أن الأحداث ستنقلب فيما بعد بطريقة مشجعة وستكون المعجزة عظيمة جداً. وكما كانت توجد في عصر (وحياة) يوسف مصاعب في البداية، وعلى مدى وقت طويل بدت الأحداث وكأنها تأخذ خطأ مغاير للوعد، لكنها بعد ذلك فاقت كل توقع. وفي وقت الصلب لم تكن الأمور تسير بطريقة موافقة، ولم تكن الأعمال تأتي بالثمار المرجوة منها في البداية، بل العثرة هي التي كانت تنتج في البدء، ولم تعط إلا بعض علامات لإثارة الدهشة، ولتقوم من تجاسروا على التصرف بطريقة إجرامية، لكنها في الحال (سريعاً ما) اختفت.

٩- إن كان حجاب الهيكل قد تمزق آنذاك، والصخور تشقق، والشمس أظلمت، فهذه الأعاجيب قد تمت لمدة يوم واحد، ومعظم الناس نسيها. وأيضاً بعد هذا فإن الرسل تم نفيهم وسط مطاردات ومحاربات وفخاخ، ساعين إلى أن لا يلحظهم أحد محتفين خائفين، وأعلنوا الكلمة وهم في هذه الحالة. والشعب اليهودي أظهر سطوته بطرد وملاحقة وجر وتمزيق من قد آمنوا. وفي الحقيقة فإن اليهود كان معهم السلطان، وكانوا كل يوم يطاردون ويلاحقون الرسل.

١٠- ولماذا الحديث عن الشعب اليهودي والسلطان؟ فإن بولس وهو صانع خيام أمضى كل وقته في الانشغال بالجلود، ومن يا ترى يمكن أن يكون أكثر سداجة من صانع خيام؟ وهو قد أصيب بمثل هذا الجنون وجرّ بقسوة رجالاً ونساءً وأودعهم في السجن والذي قد صُلب عاني كل هذا .

لكن أنت تنظر كيف أن الذي كان مضطهداً قد فاق فيما بعد كل الرسل، وكيف أن سلوكه كان أكثر لمعاناً من الشمس وملاً الأرض كلها.

## الفصل الحادي والعشرون

### توجد تجارب كثيرة في كل من

### العهد القديم والعهد الجديد.

١- إن قلت: لماذا توجد في العهدين القديم والجديد مخاطر وتجارب وفخاخ كثيرة؟ فأعلمني ما هو السبب؟

إن الحياة الحاضرة، هي ميدان مصارعة، ساحة ألعاب رياضية، جهاد، بوتقة، محل صباغة حيث تصنع الفضيلة. وكما أن الصباغين يأخذون الجلود، يخمرونها أولاً، ثم ينشرونها ويدقونها ويضربونها على الحوائط ويجففوها، وبألف وسيلة أخرى يجعلونها جاهزة لأخذ الصبغة، وهكذا يجعلونها تأخذ صبغة جميلة.

٢- كما أن الصباغة يلقون الذهب في النار مسلّمين إياه إلى تمحيص الأتون ليجعلوه أكثر نقاوة، وكما أن المدربين يجتذبون الذين يدربونهم لتدريبات شاقة، ويهاجمونهم بشدة أكثر من خصومهم ليقوموهم أثناء التدريب، ليكونوا مؤهلين في المباراة، وجاهزين لمواجهة ضربات خصومهم والإفلات منها بسهولة، فهكذا الله يتصرف بالمثل في الحياة الحاضرة<sup>١١</sup>

٣- مريداً إعداد النفس لفضيلة تناسب أهدافه في البوتقة ويسلمها لمحنة الآلام، لكيما يشدد من قد فقدوا الشجاعة ومن صاروا غير مكترئين، وليتح لمن قد برهنوا على ثباتهم أن يبذلوا المزيد أيضاً لكي يجعلهم أكثر مناعة ضد فخاخ إبليس وشباك الشياطين، وجديرين تماماً لنوال الخيرات الآتية.

٤- وفي الواقع يقال أن الإنسان الذي لم يُحرب لا يساوي شيئاً. وبولس الرسول يقول: «عَالَمِينَ أَنْ الضَّبِقَ يُنْشِئُ صَبْرًا، وَالصَّبْرُ تَرْكِيَةٌ، وَالتَّرْكِيَةٌ رَجَاءٌ» (رو ٥: ٣-٤) والله إذ يريد جعل البشر أكثر قوة وأكثر صبراً، فإنه يدع النفس (حرفياً العملة النقدية) تُحرب بكل أنواع الطرق.

١١- رجاء أن نضع في اعتبارنا أن الترقيم الموجود في النص الأجنبي أحياناً يفسد المعنى لو نسبنا انسيابية وتسلسل الكلام في الواقع العملي.

٥- إن الله قد ترك أيوب ليعاني ما عاناه، حتى ويظهر صلابته في التجربة وليسد فم الشيطان. وإن كان أرسل الرسل (للكرازة وسط ظروف صعبة) فهذا لكي يجعلهم أكثر شجاعة ويظهر هكذا قوته فيهم. وإظهار قوته في ضعفهم ليس بالأمر القليل الأهمية، حتى أن بولس عندما أراد أن يتملص من البلايا التي اجتاحتها قال له الرب: «تَكْفِيكَ نِعْمَتِي، لِأَنَّ قُوَّتِي فِي الضُّعْفِ تُكْمَلُ» (٢ كو ١٢: ٩).

## الفصل الثاني والعشرون

التجارب ليست فقط لن تعثر من كانوا مهياًين حسناً، بل هي أيضاً مفيدة لهم، حتى لو كانوا من اليونانيين (أي من الوثنيين وغير المؤمنين).

١- في الواقع إن الذين لم يقبلوا بعد رسالة المسيحية (أي بصيروا مسيحيين) يجنون من هذه التجارب منفعة عظيمة جداً لو كانوا يقظين. لأنهم إذ يرون أناساً يجتملون المظالم ويهانون ويُحسبون ويشهّرون بهم، ويصيرون ضحايا للفخاخ (المنصوبة لهم)، تُمزق أجسادهم ويتم حرقهم وإغراقهم، ولا ينهاروا أمام أي خطر، تفكر أي إعجاب يبدوه كإعجابهم - سابقاً والآن - أمام هؤلاء المصارعون غير العاديين. وهكذا لا تكون الأحداث سبب عثرة لمن هم يقظون، بل فرصة أكثر أهمية للتعليم.

٢- لهذا السبب سمع بولس هذه الكلمات: «لأن قوّتي في الضّعف تُكَمَّلُ» (٢ كو ١٢: ٩)؛ ويمكن إثبات هذا الأمر في العهدين القديم والجديد. تفكر فيما اختبره نوح عندما انهمز في محضر جيشه من ثلاثة فتيّة عبيد مسييين، مقيدين ومطروحين في النار، وكيف أنه لم يستطع التغلب على هؤلاء الثلاثة الخاضعين له في العبودية، والواقعين تحت رحمته محرومين من وطنهم ومن الحرية ومن كرامة العز والغنى، مُبعدين عن أقاربهم. لو لم يقام هذا الحريق الهائل ما كانت هناك مكافأة وما كان هناك إكليل متألئ.

٣- تفكر فيما كان ينبغي لهيرودس أن يختبره وهو منهزم من الضلال من إنسان مقيد بالسلاسل، إذ يرى أن قيوده لم تقلل من شجاعته الجسورة، بل أنه فضّل أن يُذبح على أن يفقد هذه الحرية العظيمة للكلمة.

٤- تفكر أنه بين الناس الذين عاشوا آنذاك والذين جاءوا بعدهم، من الذي يرى ويسمع هذا ولا يجني منه منفعة عظيمة، حتى لو كان فاتر الهمّة تماماً، إنما بشرط أن يكون له بعض الذكاء؟ لا تحدّثني عن هؤلاء الجهّال التعساء، عن الذين هم أغبياء هائمون في الجسد وأكثر خفة من أوراق الشجر. هؤلاء يسقطون، ليس تحت ضربات التجارب التي تكلمت عنها فقط، بل أمام أي عقبة أياً كانت، يسقطون مثل الشعب اليهودي الذي أكل المنّ والخبز وكان دائماً عسير



إرضائه، سواء كان في مصر أو خارج مصر، سواء كان موسى غائباً أو حاضراً.

٥- لكن قدّم لي أناساً يقظين منتبهين، وتفكر أية منفعة سيجنونها بدون شك من هذه الأمثلة، في رؤيتهم لنفس غير مقهورة، حكمة لا تدع نفسها تخضع، لسان ممتلئ شجاعة جسورة، إنسان يسكن الصحراء ويتصر على ملك، مقيد ولم يستسلم، رأسه مقطوعة ولم يصمت! ولا تتوقف عند هذا الأمر، بل افحص ما حدث بعد هذا.

٦- قطع هيرودس رأس يوحنا المعمدان. من هو الذي يعلن الكل طوباويته، من هو الذي يشير الغيرة (للإقضاء به)؟ من هو الذي يُعلن اسمه (في كل العالم)؟ من هو الذي كُليل؟ من هو الذي تقام له التمجيدات؟ من هو الذي يُمدح؟ من هو الذي يثير الإعجاب؟ من هو الذي أيضاً يفحم الخطأ (إلى الآن)؟

٧- ألا يصرخ المعمدان في كل كنيسة قائلاً: «لا يحل لك أن تأخذ زوجة فيلبس أخيك» بينما الآخر يُفصح حتى بعد موته، بسبب زناه وظلمه ووقاحته؟  
بعد كل ما قلناه، انظر ما هي قوة من قيد، وما هو ضعف الطاغية؟

٨- هيرودس لم تكن لديه القوة الكافية ليضع لجاماً للسان واحد. إنما بقطعه فتح بدلاً منه، وبفضله، آلاف الأفواه. ويوحنا على العكس أرعبه في الحال بعد القتل، والخوف قلب ضمير القاتل إلى درجة أنه اعتقد أن يوحنا قام من الأموات ويُجري معجزات. والآن، ومنذ ذلك الحين، وبدون توقف، وفي كل أنحاء الأرض، يفحمه بنفسه وبواسطة الآخرين.

٩- في الواقع إن كل من يقرأ الإنجيل يقول: «لا يحل لك أن تأخذ زوجة فيلبس أخيك» (مت ١٤: ٤)؛ وحتى بدون قراءة الإنجيل، إذ في المحادثات والاجتماعات التي تتم في البيوت وفي السوق أو في كل موضع، حتى إن ذهبت إلى بلاد الفرس أو إلى الهند أو إلى الغرب أو إلى أي موضع على الأرض تشرق عليه الشمس، حتى إلى أقصى الأرض، ستسمع هذا الصوت وسترى هذا البار يتحدث إلى الآن بصوت عالي، يتكلم ويفحم شر الطاغية ولم يسكت، وعلى الرغم من مضي الزمن فإن اتهامه لم يفقد قوته.

١٠- أي ضرر سببته هذه النهاية لهذا البار؟ ماذا استطاع أن يصنعه له هذا الموت العنيف؟ ماذا استطاعت أن تصنعه له القيود، وماذا فعل به السجن؟ من هم الذين لم يضعهم على الطريق المستقيم - بشرط أن يكونوا أذكاء - بما قاله وبما تألم به وبما يعلنه الآن أيضاً والذي هو شبيه لما قاله عندما كان حياً؟ لا تقل لي: ماذا استفاد هو من الموت؟ لأنه لم يكن موتاً بل إكليلاً. ما حدث له لم يكن نهاية بل بداية حياة أكثر عظمة. تعلم أن تناضل بطريقة روحية وليس فقط لا شيء يستطيع أن يؤديك، بل أيضاً ستجني أعظم المكافآت.

١١- ماذا كان من المرأة المصرية؟ ألم تتهم وتشتكي وتفيد يوسف البار وتلقيه في السجن؟ ألم تعلق على رأسه أسوأ الأخطار؟ ألم تخسف به بقدر ما كان في استطاعتها؟ ألم تشمله بسمعة رديئة؟ فيماذا تضرر في تلك اللحظة أو الآن؟ وكما أنه عندما تغطي الفحم المتقد بقش يبدو في البداية أنه اختفى، لكنه في الحال يلتهم ما قد وضع فوقه، وبفضل هذا القش نفسه يصعد لهيبه عالياً، هكذا الفضيلة، حتى لو ثقلت بالإساءات، وبفضل العقبات نفسها، تزدهر بالأكثر بعد ذلك وترتفع إلى السماء.

١٢- من هو أكثر سعادة من هذا الشاب (يوسف) وذلك بفضل التشهير الذي حل به، والفتح الذي نُصّب له، وليس بفضل عرش مصر ولا بفضل المملكة الأرضية التي كانت له؟ لأن المجد والاعتبار والأكالييل محفوظين في كل موضع للألام. وغير هذا ألا يُحتفل به في كل الأرض؟ ثم إن طول الزمان الذي مضى لم يجعل ذكره تذبل، بل أن صور فضيلته وحكمته موجودة على الأرض بأكثر لمعان ودوام مما لتمائيل الملوك عند الرومان وفي البلاد البربرية، وفي ضمير ولسان كل أحد.

١٤- نحن نراه وهو سجين مجبراً على الطاعة، يقوم بواجبه من جهة هذه المرأة التعيسة الخليعة، صانعاً كل ما في وسعه من أجل إنقاذها وإجبارها على الخجل وإطفاء الأتون، مجتهداً في انتشارها من العاصفة المربعة، واقتيادها إلى الميناء (بسلام). لكن لما ازدادت العاصفة وغرقت السفينة، وإذ هي قد اكتأبت (من صده لها) نراه يفلت من الأمواج، تاركاً ثيابه بين يدي تلك المرأة، وهو أكثر بهاء في عريه عن أناس يلبسون الأرجوان، ومثل سنبلة أو نصب تذكاري أمام نصب حكمته.

١٥- ونحن لم نفقد تذكره على مدى الأحداث الواقعية، بل نراه من جديد سجيناً مقيداً عائشاً في القدارة ومتضجراً هناك على مدى وقت طويل وبسبب هذا على الأخص نحن نبدي إعجابنا به، ونقول بطوباويته ونصاب بدهشة منه ونمدحه. إن كان أحد حكيماً، في تأمله في يوسف يصير أكثر حكمة، وإن كان أحد شهواته هائجة، فإنه يوجهها بواسطة هذه القصة نحو الحكمة، وهذه القصة تجعل حاله أفضل.

١٦- وفي قراءتك لكل هذا لا تضطربوا، بل انتفعوا بما حدث. وليت صبر الذين يجاهدون يكون معلماً لكم للصمود. وفي رؤيتكم حياة الناس النبلاء وذوي النفوس السامية - منسوجة بمثل هذه الأنعاب - فلا تخوروا من التجارب الحادثة لكل واحد وللمجتمع والمسيحي بصفة عامة، إذ أن الأمر هو هكذا بالنسبة للكنيسة منذ البدء، إذ أنها تغتذي بالمعاناة وبما تكلم وتمجد. لا تكونوا مندهشين، فلم يحدث شيء أبداً غير عادي.

١٧- وكما أنه في الحياة العامة فإن اللصوص والقراصنة وثاقبي الحوائط يسببون دائماً انزعاجاً ومضايقة لمن يملك الذهب والأحجار الكريمة، وليس لمن لديه قش وتبن ورميل، هكذا عندما يرى الشيطان غنى متراكم لدى النفس، وتقوى فائضة لا يمكن إنكارها، ففيها ينفذ مكائده ويتقدم لمحاربتها. لكن لو كان ضحايا هذه الهجمات يقظين، ليس فقط أنهم لن ينهزموا، بل وسيجمعون كترأ عظيماً جداً من الفضائل، وهذا هو ما يحدث بالفعل.

## الفصل الثالث والعشرون

ما حدث هو علامة عظيمة على مجد الكنيسة،

وكثيرون انتفعوا به.

١- يمكن اعتبار هذا كعلامة عظيمة على الفضائل المتراكمة لحساب الكنيسة وعلى شجاعته. عندما رأى الشيطان الشرير الكنيسة مزدهرة ومكرمة ونامية في وقت قليل، وممتلئة غيرة. عندما رأى الجهود نحو أعمال أفضل من جهة من كانوا سابقاً محل اعتبار، والتحول نحو التوبة من الذين كانوا عائشين في الخطية، والأرض كلها تلقت التعاليم (الروحية) من هذه المدينة الشهيرة (القسطنطينية)، فإنه تحرك بكل دسائسه، وأشعل حروباً داخلية.

٢- كما بالنسبة لأيوب، فتارة فقد أملاكه، وتارة أخرى حُرم من أولاده، وتارة حالته الصحية منهورة، وتارة أخرى لسان زوجته (يطعنه)، تارة الإهانات وتارة أخرى السخرية والإساءات التي وجهها إليه أصدقاؤه، إذ أن الشيطان تحرك وتقديم بكل أنواع المكائد، هكذا بالنسبة للكنيسة. فبواسطة الأصدقاء والأعداء ومن يشغلون مناصباً في الإكليروس، ومن كانوا في الجيش، ومن الأساقفة، وبشخصيات عديدة من كل نوع حرك الشيطان كل من هو خاضع له.

٣- ولكن عندما دبر فخاحاً كثيرة، فإنه لم يزعزعها فقط، بل أيضاً جعلها أكثر بهاء. لأنها لو لم تكن مضطهدة، ما كانت شكّلت البشر مثلما تعلّم الأرض الآن التعفف والسيطرة على الأهواء، واحتمال التجارب، وإظهار الصبر، واحتقار أمور الحياة، وعدم صنع أي اعتبار للغنى، والضحك على الكرامات (ومظاهر التعظيم)، واحتقار الموت والاستخفاف بالحياة، وعدم الاعتبار للأقارب والأصدقاء والأهل، والاستعداد لتلقي كل أنواع الأضرار، والاندفاع نحو السيف (للاستشهاد)، واعتبار كل تعظّمات الحياة الحاضرة - أقصد الكرامات والمجد والقوة والترف - مثل أكثر أزهار الربيع الضعيفة.

٤- وهي لا تعلّم هذا الواحد أو اثنين أو ثلاثة فقط، بل لكل الشعب، ليس بكلماتها فقط، بل بأعمالها، بآلامها، بانتصاراتها، بالفخاخ التي تنتصر عليها، بالصمود الذي تقاوم به كل ما يأتي عليها، وهي أكثر قوة من الفولاذ، وأكثر ثباتاً من الصخر، دون أن تستخدم أسلحة،

أو تعلن الحرب، ودون إطلاق حربة أو سهم، بل تحيط كل واحد بترس الصبر والتعقل  
والوداعة والشجاعة، فتجعل من يؤذيها يمتلي خزيًا من أتعابها.

## الفصل الرابع والعشرون

### الذين اقترفوا المظالم قد عوقبوا.

١- ما هو أكيد على الأقل أن البعض الآن لهم وجه مضيء بنظرة رجل حر وبشجاعة جسورة يستحيل وصفها، يذهبون ويحيثون في السوق.

يعيشون في بيوتهم، يذهبون إلى القديس، بينما الآخرون الذين اقترفوا الأعمال الرديئة يتخفون تحت أحد مكائدهم التي عملوها، وإذ لهم ضمير رديء، يذهبون هكذا إلى كل موضع وهم خائفون وممتلئون رعدة.

٢- ومثل الحيوانات المفترسة التي أوشكت على الموت، فإنها بعد الإصابة الأولى أو الثانية، تكابد تحت ثقل وثبتها من ضربة قاسية، والجروح التي أصابتها حتى إلى عمق أحشائها. وكما أن الأمواج المندفعة تنكسر على الصخور وتتلاشى، هكذا هؤلاء الناس يحفرون حفرة - بالفخاخ التي نصبوها - أمام أنفسهم أكثر مما أمام الآخرين.

٣- لأن الأولين، ضحايا العداوة في المسكونة، يحبهم ويمتدحهم ويعجب بهم ويعلن أسماؤهم ويكللهم الذين يعرفونهم والذين لا يعرفونهم، الذين علموا بأعمالهم الحسنة سواء لرؤيتهم لها وهي تتم، أو بسماعهم عنها، الذين شاركوا في عدد كبير من أفعالهم وجهاداتهم وكل الذين طلبوا لهم السعادة.

لكن على العكس، فإن الآخرين الذين دبوا هذه الخطط العدوانية، فإن كثيراً من الناس يلومونهم ويهاجمونهم، يقنعونهم بجرائمهم ويهينونهم، يوجهون لهم إساءات كثيرة ويتمنون رؤيتهم معاقبين ومؤذنين.

٤- وكل هذا يحدث على الأرض.

لكن ما الذي ينبغي أن يعطوا عنه حساباً فوق؟ إن كان الذي يعثر مجرد واحد يُعاقب هكذا بشدة إذ خير له أن يعلق في عنقه حجر الرحي ويفرق في لجة البحر (مت ١٨: ٦)، فتفكر أية عقوبة سيكابدونها أمام هذا المنذر الرهيب، أية دينونة سيحكم بها عليهم، وهم الذين بالقدر الذي كان في استطاعتهم أزعجوا الأرض كلها وقلبوا الكنائس معلنين الحرب على سلام هكذا

عميق، ومطلقين آلاف العثرات في كل موضع.

٥- أما الذين عانوا من جانبهم كل ما عانوه، فإنهم سيقفون خلف الشهداء والرسل والنبلاء والشجعان مستنيرين بأعمالهم الصالحة، بالأمهم، بأكاليلهم، بمكافآتهم، بتقتهم الفائضة.

٦- وسيرون الآخرين معاقبين، ولن يستطيعوا أن ينتزعوهم من العقوبة حتى لو أرادوا هذا ألف مرة، وسيتضرعوا إلى الله لأجلهم، وهذا لن يفيدهم بشئ. إن كان الغني الذي كان يمر بجانب فقير واحد وهو لعازر عانى مثل هذه العقوبة ولم يجد أية تعزية، فكم سيعاني أولئك الذين اضطهدوا أناساً كثيرين وأعثروهم؟

٧- تفكروا في كل هذا، واقطفوا من الكتاب المقدس أفكاراً مشاهمة كمالاً أكيد لكم، والقصص (الكتابية) كعلاج لمن كانوا أكثر ضعفاً، واستمروا ثابتين غير متزعزعين، منتظرين الخيرات المحفوظة لكم (في السموات).

٨- لأنه بالتأكيد ستوجد مكافأة لكم، لا تعادل أبداً أتعابكم بل تفوقها جداً بما لا يوصف. هذا هو الله الذي يجب الإنسان. فالذين قرروا عمل أو قول أي شيء من الخير، اعتنى هو بأن يفوقهم بعطاياه ومكافآته.

لا قيمة للحياة دون أن نفحص أبعادها. وبكتشف القيمة الهائلة وراء كل لحظة نعيشها. وكل تجربة  
بخصوصها. وكل عناية نتمتع بها من يد الرب القدير....

وهذا الاكتشاف توصل إليه القديس يوحنا ذهبي الفم، وقدمه لنا بصياغة مدهشة تساعدنا على رؤية  
الأمور التي كانت خافية... ونلمس قوة الله التي تساندنا. وعنايته التي ترعانا.

### قالوا عن القديس يوحنا ذهبي الفم:

"عظيماً في كتاباته الدسمة في مواضيع كثيرة أهمها عظائمه عن التوبة ولاهوت المسيح وتفسير الكتاب  
المقدس"

الأنبا بطرس - الأسقف العام بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية

"صوت يتردد صدها منذ أكثر من ألف وستمئة سنة ولا زالت طاقته الروحية تندفق عبر القرون...  
كتاباته أزهار روحية تزهر بألوانها في البستان الروحي"

الأنبا يوحنا قلته - النائب البطريركي للأقباط الكاثوليك

"شجاعته منقطعة النظير جعلته لا يعاباً باضطهاد الإمبراطور الروماني له واستعباده من مكانه  
كأسقف القبطية... كتاباته تعزينا الكنائس الأرثوذكسية الشرقية والكاثوليكية والأسفنية"

المطران د. منير حنا أنيس

مطران الكنيسة الأسقفية

